إلى القرآن الكريم

للأستاذ الإمام
الشيخ
محمود شلتوت

٣٠

دار الهلال

إلى القرآن الكريم

للأستاذ الأكبر
محمود شلتوت
شيخ الأزهر الشريف

دار الهلال

مقاصد القرآن

القرآن الكريم : آخر كتاب أنزله الله هداية للناس أجمعين : « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » ، « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ، واتقوا لعلكم ترحمون » ، « ان هـذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا »

ومن هنا كان العمل على ما يقرّب للناس معناه ، ويفتح لهم باب التفقه فيه ، من أهم ما يجب على القادة والمرشدين ..

وقد رأينا أن نقدم هذه الطريقة التى ترسم الخطوط الأولى للموضوعات التى يتضمنها الربع من القرآن حتى تصبح مقاصده بارزة ومسالك فهمه واضحة ، فتأخذ مكانها من القلب ، وتتجه النفس الى التوسع فى التفقه والمعرفة . وسنبدأ ان شاء الله من أول القرآن ، بحديث نجمل فيه مقاصد القرآن جملة ، ونشير الى أساليبه التى اتخذها سبيلا للدعوة اليها

***

ونرجو أن يكون هذا بمثابة منـار يهدى الى معرفة ما هو من مهمة القرآن فيطلب منه ، وما ليس من مهمته فلا ننتظره منه ، ولا نكره آياته عليه ..

وان نظرة فى القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى : « ان هـذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا » لترينا ان مقاصد القرآن تدور حول نواح ثلاث : ناحيـة العقيدة ، وناحية الأخلاق ، وناحية الأحكام

فالعقائد : تطهر القلب من بذور الشرك والوثنيـة ، وتربطه بمبـدأ

الروحية الصافية ، وهى تشمل ما يجب الايمان به فى جانب الله من صفات الجلال والكمال ، وما يجب الايمان به فى جانب الوحى والرسالات من الملائكة والكتب والنبيين ، وما يجب الايمان به فى حالات اليوم الآخر من البعث والجزاء ..

***

والأخلاق : تهذب النفس وتزكيها ، وترفع من شأن الفرد والجماعة ، وتقوى عرى التآخى والتعاون بين بنى الانسان ، وتشمل : الصدق ، والصبر ، والوفاء بالعهد ، والحلم ، والجود ، والرحمة ، وغيرها مما يحقق فى الانسان ثمرة ايمانه بالله وصفاته التى يجب أن يكون عليها عباده

***

أما الأحكام : فهى ما بينه الله فى كتابه ، أو بين أصوله من النظم التى يجب اتباعها ، فى تنظيم علاقة الانسان بربه ، وعلاقته بأخيه الانسان ، وتشمل : أحكام الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، واليمين ، والنذر، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة العبادات التى تغذى الايمان . وتنمى ثمراته الطيبة . وتشمل : أحكام الزواج ، والطلاق ، وما يتبعهما من مهر ونفقة ، ورضاعة ونسب ، وعدة ، ووصية ، وارث ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة الأحوال الشخصية ، أو أحكام الأسرة . وتشمل : أحكام البيع ، والاجارة ، والرهن ، والمداينة ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة المعاملات المالية . وتشمل : أحكام الجنايات ، والجرائم ، كالقتل ، والسرقة ، والافساد فى الأرض ، والزنا ، والقذف ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة العقوبات ، وتشمل : أحكام الحرب والسلم وما يتبعهما من غنائم وأسرى ، ومعاهدات ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة الأحكام الدولية العامة

مصادر التشريع الاسلامى

وقد عرض بعد هذا كله لمصادر التشريع ، وبين انها الكتاب والسنة ، واجتهاد أولى الرأى ، أرباب العلم بالمصلحة فى نواحى الحياة

كما عرض لأساس الحكومة فى الاسلام وهى الشورى ، وجعلها من أخص أوصاف المؤمنين

اساليب الدعوة

هذه هى الخطوط الأصلية لمقاصد القرآن الكريم .. أما الأساليب التى اتخذها سبيلا للدعوة الى تلك المقاصد فهى :

أولا : الارشاد الى النظر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، لتعرف أسرار الله فى كونه ، وابداعه فى خلقه ، وبذلك تمتلىء القلوب ايمانا بوجوده وعظمته عن نظر واقتناع ، لا عن تقليد وابتداع . وبهذا السبيل كرم الله العقل ، وفتح له باب البحث عن خواص الأجسام وأسرار الكائنات فى الأرض ، والسماء ، والماء ، والهواء ، كى ينتفع بها فى حياته ، ويستخدمها فى التعمير والانشاء

***

ثانيا : قصص الأولين ، أفرادا وأمما ، الصالحين منهم والمفسدين ، وقد أورد القرآن فى ذلك كثيرا مما يثير العظة والاعتبار ، ويرشد الى سنن الله فى معاملة عباده ، وهذا هو مقصد القرآن من ذكر قصص الماضين .. فلم يذكره على انه تاريخ يحدد الزمان والمكان والأشخاص ، ويرتب الوقائع ويبين الأسباب والنتائج ، ولم يذكره على انه أساطير تتحدث عن الغرائب والأعاجيب التى يسمر بها الناس فى النوادى والمجتمعات

***

ثالثا : ايقاظ الشعور الباطنى فى الانسان فيندفع الانسان بوحى هذا الشعور الى التساؤل عن مبدئه ، وعن مادته ، وعن حياته ، وعن مآله ومصيره ، حتى يصل الى الاعتراف بخالق القوى والقدر ، واضع الأسباب

والمسببات ، رب الأرض والسموات ، مدبر الأمر ومصرفه ، وتلك هى الفطرة التى ذكرها الله بقوله تعالى : « فطرة الله التى فطر الناس عليها »

***

رابعـا : أما الأسـلوب الرابع الذى اتخذه القرآن فى الدعوة الى مقاصده ، فهو : أسلوب الانذار والتبشير ، أو الوعد والوعيد ، وللقرآن فى ذلك طريقان :

أحدهما : الوعـد والوعيد عن طريق الحياة الدنيـا : يعد المؤمنين الصالحين بعموم السلطان والتمكين فى الأرض ، وينذر الجاحدين المفسدين بتقلص العز وانتزاع الملك ، وتسليط الأعداء

وثانيهما : للترغيب بنعيم الآخرة الدائم الذى لا ينقطع ، الصافى الذى لا يشوبه كدر . والترهيب من الكفر والافساد فى الأرض والطغيان على عباد الله بعذابها الدائم المهين ..

***

هذه مقاصد القرآن الكريم ، وتلك أساليبه فى الدعوة ..

فعلينـا أن نتجه الى القرآن فنرتل آياته ، أو نسـمعها ، ونستخلص أحكامه ، ونعرف أغراضه .. وعسى أن نجد فى هـذا ما يقرب لنا الأمر ، ويسهل علينا التفقه بالقرآن ، فنعمـل به فى خاصـة أنفسنا ، وأهلينا ، ومواطنينا ، وبذلك نحصل على رضاء الله واسعاده فى الدنيا والآخرة ..

«والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لا نضيع أجر المصلحين»

محمود شلتوت

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة ، وتسمى أم الكتاب ، هى احدى سور خمس فى القرآن الكريم بدئت باثبات الحمد لله (١)

(*) وقد أجملت الفاتحة كل ما فصل فى القرآن الكريم من اثبات التوحيد والبعث ، وبيان الطريق المستقيم الذى يسلكه الانسان فى تنظيم حيـاته مع ربه ومع نفسه ، ومع النـاس : فالجملتان « الحمد لله رب العالمين » ، « الرحمن الرحيم » تثبتان توحيد الله فى الخلق والتربية عن طريق الرحمة الواصل أثرها الى عباده . والجملة الثالثة : « مالك يوم الدين » تثبت النشأة الآخرة التى يقع فيها الجزاء على الأعمال . والجملتان « اياك نعبد ، واياك نستعين » تقرران مبدأ عبادة الله وحده ومبدأ عجز الانسان واحتياجه الى معونة ربه ، وتقطعان عليه سبيل التوجه لغير الله بالعبادة والاستعانة

وجملة « اهدنا الصراط المستقيم » ، توجه الانسان الى طلب الأحكام التى ينظم بها شأنه من الله سبحانه وتعالى فهو المعلم ، وهو المشرع ، وهو الموفق للعمل بما يعلم وبما يشرع

الناس امام شرع الله

وجملة « صراط الذين أنعمت عليهم » ترشد الى أن الناس أمام شرع الله وطريقه فرق ثلاث : فريق عرفوا بالتزام الصراط المستقيم حتى أضيف اليهم ، وعرف بهم ، وكانوا فيه قـدوة لغيرهم ، وهم « المنعم عليهم »

---

(١) وهى : الفاتحة • الانعام • الكهف ـ سبأ ـ فاطر

(*) فى تفسير الاجزاء العشرة الاولى للقرآن الكريم ـ راجع كتابنا : تفسير القرآن الكريم ـ الجزء الاول

وفريق جحدوا صراط الله وأحكامه عنادا واستكبارا وهم « المغضـــوب عليهم » ، وفريق متردد بين الظهور بالايمان وبين اســـتبطان الكفر وهم « الضالون »

***

وبذلك استوفت سورة الفاتحة العقيدة فى المبدأ والمعاد ، وبها كمال الانسان من الجانب العلمى ، واستوفت طريق العمل الصالح ، وبه كمال الانسان من الجانب العملى ، وأشـــارت الى تاريخ البشرية الفاضلة فى التزام الحق علما وعملا ، والى تاريخ البشرية الفاسقة فى التنكب عن العلم والعمل ، وهذا اجمال لكل ما فصل فى القرآن الكريم ، ومن هنا كانت الفاتحة مقدمة الكتاب ، وأم الكتاب

سورة البقرة

الربع الأول :

* سورة البقرة هى أطول سورة فى القرآن ، وأول سورة مدنية فيه ، وقد اشتملت على بيان طوائف النـاس بالنسبة للانتفـاع بالقرآن وعدم الانتفاع به ، وتوجيه الخطاب الى الناس عامة بعناصر الدين ، والتنبيه الى بعض أدلة التوحيد فى النفس والآفاق ، والتذكير بمكانة الانسان التى أعد لها فى هذه الحياة

طوائف النـاس امام القرآن

بدأت السورة فنوهت بشأن القرآن الكريم ، وانه حق لا ريب فيه ، وان الذين ينتفعون به انما هم « المتقون » الذين سلمت فطرهم من تسلط المادة المظلمة ، والعصبية الغاشمة ، فآمنوا بالله واليوم الآخر ، وعرفوا حق الله فأقاموا الصلاة ، وحق عباده فأنفقوا فى سبيله « ومما رزقناهم ينفقون » وعرفوا ان رسالته فى جميع الأزمان واحدة ، فآمنوا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل من قبل : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »

ثم تقابل هؤلاء بطـائفة ثانية تبجحت بالعناد ، وتحكمت فيهم النشأة الضالة ، حتى انسدت عليهم طرق الهداية وصاروا لا يرجى منهم خير ولا ايمان ، وهؤلاء هم الذين أيأس الله من ايمانهم نبيه ، وقال فيهم : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنـذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى

(*) يشتمل القرآن على ثلاثين جزءا ، وكل جزء يحتوى على ارباع والربع هنا من اول سورة البقرة الى نهاية الآية ٢٥

سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم »

ثم ذكرت السورة طائفة ثالثة ، هى شر ما ابتلى به الحق وأهله فى هذه الحياة وهم المنافقون !.. أنكرت قلوبهم كالكافرين ، ونافقوا ، وقابلوا المؤمنين بوجه والكافرين بوجه. وقد تحدث الله عنهم فى الربع الأول بثلاث عشرة آية ، أظهر دخيلتهم وأغراضهم ، ومرض قلوبهم ، وذبذبتهم بين هؤلاء وهؤلاء : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . ثم زادهم توضيحا فضرب لحيرتهم مثلين : مثل من أضاءت حوله النار ثم انطفأت عليه ، وتركته فى ظلمة لا يهتدى فيها الى صواب .. ومثل من أخذته السماء بمطرها وظلمتها ورعدها وبرقها ، فأخذ يتحين الخلاص مضطربا فى شأنه ، خائفا من الهلاك ، ولو شاء الله لذهب بسمعه وبصره ، ان الله على كل شيء قدير

وأخيرا يوجه الخطاب الى الناس عامة ، فيطلب منهم عبادة الله وتوحيده ، والايمان برسالة محمد ، ويقرر الجزاء ، وفى سبيل ذلك يلفت نظرهم الى نعمته عليهم بالتربية والخلق ، وبتسخير الأرض ومنافعها ، والسماء ومائها فى الحصول على الرزق والثمرات ، ويتحداهم أن يأتوا بمثل القرآن وهم أهل الكلام ، ثم يحذرهم — ان لم يفعلوا ولن يفعلوا — النار التى وقودها الناس والحجارة

وهنا يأتى الأمر بتبشير المؤمنين بأن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، جمعت لذائذ المادة والروح ، وهم فيها خالدون

الربع الثانى :

ضرب الامثال فى القرآن

(*) من سنة الله فى القرآن أن يستخدم فى البيان ضرب الأمثال تقريبا لما يجب أن تنفعل به النفوس ، وتؤمن به القلوب .. فضرب مثلين

(*) من الآية ٢٦ الى نهاية الآية ٤٣ من سورة البقرة

للمنافقين وضرب الشجرة الطيبة مثلا للكلمة الطيبة .. وضرب الذبابة والعنكبوت مثلا للشفعاء والأولياء الذين اتخذهم المشركون معبودات ليقربوهم الى الله ..

وقد جاء هذا الربع يقرر أن الله لا يمتنع من ضرب الأمثال بما يوضح ويبين ، دون نظر الى قيمة الممثل به فى ذاته أو عند الناس : « ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما . بعوضة فما فوقها »

أما الناس فهم أمام هذه الأمثال فريقان : فريق يفهم القصد الذى ترمى اليه ، ويكون لها أثرها الحسن فى نفوسهم .. وفريق يتعلق باسم الحيوان الذى ضرب به المثل ، ولا ينظر الى المعنى المقصود : فيتساءل متعجبا ، مستهزئا ، منكرا ، ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ !.. ويتخذ ذلك سبيلا لايقاع الشك فى قلوب الناس ، وهذا شأن الفاسقين الذين خرجوا بأنفسهم عن هداية الله فى خلقه ، وأساليب البيان التى طبع عليها كل لسان ، هؤلاء الذين كان من خروجهم عن هداية الله ، نقض عهد التوحيد والهداية ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل من رسالته المتتابعة ، والافساد فى الأرض يسجل الله عليهم الخسران فيقول : « أولئك هم الخاسرون » . ثم يتعجب من كفرهم واستمرارهم على هذا الفسوق مع وضوح دلائل التوحيد والايمان فى أنفسهم : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم اليه ترجعون » ، وفى الآفاق : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم »

الحكمة فى خلق الانسان

ثم يذكر الناس بما اقتضته حكمته فى خلق النوع الانسانى ، مزودا بقوى العقل والادراك ، وقوى العمل فى هذه الحياة : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة » .. ثم بما كان من الملائكة فى الاستفسار عن الحكمة فى خلق هذا النوع ، وهو — على ما يعلمون —

ذو شهوة وغضب ، بهما يفسد فى الأرض ، ويسفك الدماء . وعندئذ صور لهم قدرة الانسان ــ بما ركب فيه ــ على معرفة خصائص الأشياء ، وطلب منهم الاخبار بها ، فظهر عجزهم عما يقدر عليه الانسان ، فعلموا انهم لايستطيعون الخلافة فى الأرض التى اختير لها ذلك النوع القدير على معرفة هذه الخصائص والانتفاع بها ، فآمنوا بحكمة الله ، وانقادوا لأمره سبحانه فى تعظيم آدم وسجدوا كما أمروا : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر » . نفس شريرة ، عتت عن أمر ربها ، وكانت من الكافرين ، ومنح الله آدم منزلة التكريم ، وجعل له زوجا من نفسه يسكن اليها ، ومكنهما من متعة المادة ، بعد متعة المودة ، ثم اختبرهما ــ لحكمته البالغة ــ بالنهى عن الأكل من شجرة معينة ، ولكن الشيطان الذى أبى أن يسجد وقف لآدم بالمرصاد ، وما زال يغريه وزوجه حتى زلا ووقعا فى المخالفة ، وعندئذ أنزلا حيث التكليف ، وحيث العمل ، وحيث المنازعات والمنافسات : « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » . وعندئذ أدرك آدم خطيئته ، فتلقى من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ، وقرر له ولذريته نظام حياتهم ، وطريق سعادتهم وشقائهم : « فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

حاجة الانسان الى الوحى

وعبرتنا من هذه القصة ، ان الله خلق الانسان وجعله مستعدا للعلم والانتفاع بما خلق الله فى الكون ليكون خليفة فى الأرض ، يعمرها وينميها ، ويكون بعمله مظهرا لرحمة الله بعباده . وليخلق فيه روح المكافحة خلقه مستعدا أيضا للتأثر بداعية الخير ، وداعية الشر ، وبيّن له ان عاقبة التأثر بداعية الخير السعادة المطلقة ، وعاقبة التأثر بداعية الشر الشقاء المطلق . وبذلك كان الانسان فى حاجة الى الوحى الالهى يقيه ويحفظه من دواعى الشر ، وعلى هذا المبدأ أرسل اليه الرسل ، وأنزل الكتب تذكيرا

بما يسعده ، وتنفيرا مما يشقيه ، فيجب علينا أن تتعرف أنفسنا بغرائزها ، وأن نحصنها بهداية الله من كيد الشيطان ، وأن نلتزم ارشاد الله وأحكامه حتى نفوز برضاه ، ونحصل على اسعاده

الربع الثالث :

دعوة الرسول

✻ سورة البقرة نزلت بعد أن هاجر المسلمون الى المدينة ، وصارت لهم بالهجرة وحدة خاصـة ، وجوار ممن أوتوا الكتاب من قبـل .. وقدكان من المرتقب أن يلبى هذا الجوار الجديد دعوة النبى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ، وكانوا يطلبون به قبل مجيئه النصرة على أعدائهم ، ولكن خاب الفأل وضاع المرتقب ، وحملهم الحسد والبغى على الاعراض والتكذيب والانكار ، فتحدثت السـورة عنهم فى أربع وثمانين آية ، بدأها الله وختمها بندائهم ونسبتهم الى أبيهم ، يستحثهم على الايمان ، ويذكرهم بنعمته عليهم : « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالبـاطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين »

انحراف رؤساء بنى اسرائيل

ثم بدأ يبكت الرؤساء ـ الذين يتلون الكتاب ، ونصبوا أنفسهم لتعليم الناس أحكامه ـ على انهم يتركون أنفسهم للشهوات والأهواء دون تزكية ولا تطهير مع أنهم فى الوقت نفسه يأمرون الناس بالبر والخير ، ويحكمون لهم بالهدى والايمان ، أو يحكمون عليهم بالضلال والكفر ، ويرشـدهم

(✻) من الآية ٤٤ الى نهاية الآية ٥٩ من سورة البقرة

الى الطريق الذى يقودهم الى الخير فى أنفسهم وفى جماعتهم « واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وانهم اليه راجعون »

ثم يعود فيذكرهم مرة أخرى بالنعم التى أنعم بها عليهم فى شخص أسلافهم ويحذرهم يوم العدل والقصاص : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون » ..

تذكيرهم بنعم الله

ثم يأخذ بهم الى الماضى فيذكرهم بتنجية أسلافهم من فرعون ، وقد كان يذيقهم سوء العذاب ، يذبح أبناءهم ويترك نساءهم ، ويذكرهم بأن انجاءهم كان بأسلوب الهى لا قدرة للانسان عليه ، ولا سبيل له فى الاهتداء اليه : كان يفلق البحر وتهيئة طريق لهم فيه حتى اذا ما جاوزوا البحر ونجا جميعهم ، وأتبعهم فرعون وجنوده ، أطبق البحر على فرعون وقومه وغشيهم من اليم ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وما هدى : « وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » . نعمة مزدوجة ، فضل وقدرة ، أنجاهم وأهلك عدوهم ..

ويذكرهم بعفوه عنهم حينما عبدوا العجل فى غيبة موسى ، ويذكرهم بنعمة انزال التوراة التى بها يعرفون الحلال والحرام ، ويفرقون بين الحق والباطل . ويذكرهم بعلاجهم من أثر الصاعقة التى أخذتهم حينما تمردوا ، وقالوا لموسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة : « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون »

ويذكرهم بنعمته عليهم حينما جبنوا عن دخول الأرض المقدسة ، وقالوا : « ان فيها قوما جبارين » ، فقضى عليهم بالبقاء فى الصحراء ، تائهين أربعين سنة ، تأديبا واعدادا لذرية صالحة منهم . يذكرهم وهم فى ذلك التأديب بنعمة تظليلهم بالغمام ، يقيهم وهج الشمس ، وشدة البرد ،

ونعمة انزال المن والسلوى ، ابقاء لهم ، ورحمة بهم : « كلوا من طيبات ما رزقناكم » ..

ويذكرهم بما كان منهم بعد أن خرجوا من التيه ، وبعد أن رأوا نعمة الله عليهم فيه : يذكرهم بتمكينه اياهم من دخول الأرض المقدسة ، والتمتع بخيراتها ، ويأمرهم بالشكر على النعم ، وتقدير الفضل والرحمة ، والاعتراف بالذنب . ولكنهم مع هذا كله يبدلون قولا غير الذى قيل لهم : يستمرئون العصيان ، وينغمسون فى الطغيان ، فينزل عليهم العذاب : « رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » وهكذا سنة الله فيمن يكفر بنعمه فلا يستمع لواجب الشكر ، ولا يقوم بحق العبودية ، وينزل فى أفعاله وسلوكه على حكم الشهوة والهوى

الربع الرابع :

نزق وطغيان

* والحديث فيه لايزال مع بنى اسرائيل ، يذكرهم بالنعم على أسلافهم فضلا ورحمة وبالنقم عظة وتأديبا : أقاموا فى صحراء التيه وانقطع عنهم الماء ، فطلب لهم موسى السقيا من ربه ، فيأمره أن يضرب الحجر بعصاه ، فتنفجر منه عيون الماء ، فيأكلون ويشربون ، ويأخذ الله عليهم العهد بأن لا يفسدوا فى الأرض

يذكرهم الله بهذه النعمة ، ويذكرهم بتمردهم فى طلب الماديات ، كما تمردوا بطلب رؤية الله من قبل : « لن نصبر على طعام واحد » . نزق وطغيان فهم يعلمون انهم فى صحراء لا ماء فيها ولا زرع ، ولا تنبت شيئا مما يطلبون ، ولكنه العناد والتمرد ، يذهب بصاحبه فى الضلال كل مذهب ، ويطلب به الأدنى بدل الأعلى: «أتستبدلون الذىهو أدنى بالذى هو خير ؟ » ، ومع هذا فلكم ما سألتم : اخرجوا من التيه وادخلوا مصرا ،

(*) من الآية ٦٠ الى نهاية الآية ٧٤ من سورة البقرة

تنبت لكم أرضها ما طلبتم ، وقوموا بحق الله ، واستمعوا لأنبيائه . ولكنهم يصرون على طريقتهم ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ويعصون أوامر الله ، ويعتدون على الحقوق والحرمات ، ولا يزالون كذلك حتى يضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، ويبوءوا بغضبه ونكاله « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون »

ايمـــان وعمـل

وبعد ذلك ترشد الآيات الى أن أســاس النجاح والخسران ليس فى النسبة الى رسول ما ، دون الأخذ بأحكامه وارشاداته ، وانما هو فى صدق الايمان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح ، فمن يؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ، ويعمل صالحا « فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وفى هذا ارشاد الى أن القيم الرفيعة لا تحفظ عند الله بالأحساب ، ولا بالأنساب ، وانما تحفظ بمعان فاضلة تملأ القلب وتظهر آثارها الطيبة فى الحياة

عود الى التذكير بالنعم

ثم تعود الآيات الى تعداد النعم ، فتذكرهم بأخذ الميثاق عليهم أن يعملوا بالتوراة وأن يأخذوا أحكامها بقوة ، وأن يتجهوا الى اصلاح أنفسهم بها لعلهم يتقون ..

وتذكرهم بآية من آيات الله ، كان جـديرا بهم أن يعتبروا بها ، وأن يعلموا ان القادر عليها قادر على أن يقلبها عليهم ، فيصبحوا بها جاثمين ، ولكنهم ظلوا بعدها على شأنهم فى العناد والمكابرة ، ومع هذا فقد امتدت اليهم رحمة الله ، وعاملهم بفضله واحسانه ، ولم يشأ أن يأخذهم بآياته : « فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » . ثم تذكرهم بما كان من بعض أسلافهم حينما أمرهم الله أن يتفرغوا فى يوم السبت لعبادته فعصوا ، محتالين بطريقة عجيبة وهى أن يحجزوا السمك يوم السبت فى حظائر ويتركوه فيها ليأخـذوه فى اليوم الذى بعـده ، فضرب الله عليهم

الخزى وسلبهم خصائص الانسانية الفاضلة ، وملأ قلوبهم بالطمع والشره ، شأن القردة ، وكانت تلك عقوبة ظاهرة فيهم ، وفى أسلافهم من بعـد : « ولقد علمتم الذين اعتـدوا منكم فى السبت فقلنـا لهم كونوا قردة خاسئين ، فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين »

ثم تذكرهم الآيات بموقف من مواقف العناد التى وقفها آباؤهم من قبل ، وكانت سببا فى التشديد عليهم : تقع فيما بينهم حادثة قتل لا يعرف فيها القاتل ، ويختلفون على أنفسهم فيه ، فيلتجئون الى موسى ويطالبونه بمعرفته ، فيأمرهم بناء على ارشاد ربه أن يذبحوا بقرة ، فيقابلوا الأمر بالاستهزاء ويسألون عنها : فى سنها ، فى لونها ، فى شـأنها كله ، حتى ضيقوا على أنفسهم ، ولم يعثروا عليهـا الا بعد شـدة ، فتذبح البقرة ويضرب القتيل بجزء منها ، فيحيا ويخبر بقاتله ، ومع هذه الآية الواضحة القوية تظل قلوبهم قاسية ، فهى كالحجارة أو أشـد قسوة : « وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون »

الربع الخامس :

عنـاد ونفـاق

* وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصـحابه يطمعون فى أنهم يسارعون الى الايمان به وذلك نظرا الى أنهم أهل دين سماوى ، أصوله هى أصول رسالته وكتابهم يبشر به ويذكر أوصافه ، ولكن الله يعلم منهم خلاف ذلك ، فهم سلالة هؤلاء الذين احتـفظ لهم التـاريخ بكثير من المساوىء الدينية ، ومواقف العناد والمكابرة لرسلهم ، ولم يعملوا على تطهير أنفسهم مما كان عليه الاسلاف ، وقد قص الله على نبيه فيما سبق كثيرا من مساوئهم ، كما قص عليه كثيرا من النعم التى كان يعالجهم بها ،

(*) من الآية ٧٥ الى نهاية الآية ٩١ من سورة البقرة

المرة بعد الأخرى ، وفى هذا وجّه الخطاب الى النبى وأصحابه باستبعاد ايمانهم ، وبأنهم على عكس ما يطمعون . وأخذ يلفت الأنظار الى أنهم فى الانحراف عن الحق يشقون طريق أسلافهم ، ويسيرون على منهجهم ، فمنهم فريق يسمع كلام الله ويفهمه على وجهه الصحيح ، ثم يحرفه ويصرفه الى غير وجهته ومنهم فريق ينافق المؤمنين فيظهر لهم الايمان ، ويذكر ما يجده فى التوراة من أوصاف محمد ، واذا خلا بعضهم الى بعض تعاتبوا وتلاوموا ، وقالوا لبعضهم : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون »

ومنهم فريق لا يعلمون التوراة الا تلقفا من أفواه الأحبار والرؤساء على حسب ما أرادوا لها من التحريف والكذب والتدليس . هؤلاء الرؤساء الذين يكتبون الكتاب للناس بأيديهم على حسب أهوائهم ، وينشرونه عليهم « ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا »

هذه بعض خلالهم ، فكيف تطمعون فى سرعة ايمانهم ؟

اكاذيب مردودة

ثم أخذ يتتبع كلماتهم المسمومة التى كانوا يلقونها على مسامع الناس ليشككوهم فى صدق الدعوة ، ويصدوهم عن تلبيتها ، شأن المبطلين فى محاربة الحق فى كل عصر وفى كل مكان ، كانوا يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » . « ولن تمسنا النار الا أياما معدودة » وكانوا يقولون : « قلوبنا غلف » مقفلة ، لا تدرك شيئا مما يقول ، ولا تتجه اليه ، فيرد الله عليهم بأن تأقيت العذاب أو خلوده لا يعرف الا من جهته سبحانه ، فهل أنزل عليكم فيه وحيا ، وأخذتم به عليه عهدا : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » ؟ ..

الجزاء من جنس العمل

وليست المسألة عند الله مسألة محاباة بحب أو بنوة ، وانما هى ذات مبدأ عام ، وحكم عام ، ان تحقق المبدأ تحقق الحكم ، وان لم يتحقق

المبدأ لم يتحقق الحكم ، وبنو اسرائيل وغيرهم فى المبدأ والحكم سواء : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » ..

هذا هو المبدأ ، ونحن اذا جئنا نطبقه على حالتهم ، وجدناهم قد أخذ الله عليهم الميثـاق أن يعتقدوا الحق ، وأن يفعلوا الخير : « واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا » . كما أخـذ عليهم الميثاق ألا يفعلوا الشر ولا يقترفوا المحرم : « واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » . ثم وجدناهم قد نقضوا العهدين ، فتولوا عن فعل الخير ، وتظاهروا بالاثم والعدوان . واذن فبحكم المبدأ ليس جزاء من يفعل ذلك منهم : « الا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون »

ايثـار الدنيا سبب البلاء

ثم كشف لهم الغطاء عن سبب هذه المخالفة الكامن فى نفوسهم ، وانه هو ايثارهم الحياة الدنيا وزخارفها على الآخرة ، واهمالهم بذلك تعاليم أنبيائهم الذين أرسلوا اليهم واحدا بعد الآخر يدعونهم الى الهدى والحق فلم يحفلوا بهم ، واستكبروا عن اتباعهم : «ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون». أما قولكم : « قلوبنا غلف » فواقع الأمر ان الله لم يخلق القلوب غلفا مقفلة ، وانما خلقها مستعدة لقبول الحق ، وهم بكفرهم ، وضعوا عليها الغلاف والقفل : « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » ، وها هم أولاء يعلمون أن نبيا سيبعث ، مصدقا لما معهم ، وكانوا يطلبون به الفتح على أعدائهم قبل مجيئه : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » وضـعوا الغلاف على قلوبهم ، وباعوا أنفسهم بالشهوات والأهواء ، وكفروا بالله ورسوله ، لا نزولا على حجة ، وانما بغيا وحسدا ، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده : « فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين » ..

وكان من كلماتهم التى يبررون بها عدم ايمانهم ، اذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا » فهو الذى نثق بأنه من عند الله ولا شأن لنا بغيره ، فيرد الله عليهم : بأن القرآن الذى يطلب منهم الايمان به ، هو « الحق » الذى تنشده الفطرة ، ويشهد بصحته الوجدان ، وهو مصدق لما أنزل عليهم ، فاذا كفروا به فقد كفروا بما أنزل عليهم . ثم كيف يقبل منهم أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم ، وقد قتلوا أنبياء الله الذين بلغوهم اياه ؟ ! وكيف يقبل منهم وقد حفظ لهم التاريخ انهم عبدوا العجل فى غيبة موسى بعد أن جاءهم بالبينات ، وانهم قالوا حينما أخذ عليهم الميثاق بما نزل عليهم : « سمعنا وعصينا » ؟ أهذا ايمانهم بما أنزل عليهم ؟ ! « قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين »

الربع السادس :

مزاعم باطـــلة

* والحديث فيه لا يزال فى شـأن بنى اسرائيل المعـاصرين للنبى صلى الله عليه وسـلم ، ومناقشة كلماتهم التى كانوا يسمّمون بها جو الدعوة ، ويلبسون بها على الناس . وقد كان فيها قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا » ، ومعناه انهم لايؤمنون بما سواه . فرد الله عليهم بأن القرآن الذى يطلب منهم أن يؤمنوا به هو الحق ، وانه مصدّق لما أنزل عليهم ، فكيف يزعمون انهم يؤمنون بما أنزل عليهم ؟ ! وكيف يصدقون فى هـذا وقد قتلوا أنبياءهم من قبل ، وحفظ لهم التاريخ انهم عبدوا العجل فى غيبة موسى : « ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » . ثم يختم الرد عليهم بقوله : « قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين »

ثم يرد عليهم مزاعم أخرى باطلة ، كانوا يقولون : « ان الدار الآخرة

(*) من الآية : ٩٢ الى نهاية الاية ١٠٥ من سورة البقرة

خالصة لنا لا ينال نعيمها أحد سوانا ، فقيل لهم اذن : « فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » . ثم يتحداهم بما لا يعجزون عنه . ويستخرج السبب الواقعى الذى تنطوى عليه قلوبهم من حب الدنيا وشدة الحرص عليها : « ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم » . « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا » . ثم يكشف عن واقع أمرهم : « يود أحدهم لو يعمر ألف سنة » خوفا من العذاب الذى يلاقونه ، ولكن ليعلموا أن التعمير فى الدنيا مهما طال أمده ، لا يبعدهم عن عذاب الله ، فهو لاحق بهم لا محالة ، ولكل بداية نهاية ، ولكل أجل كتاب : «والله بصير بما يعملون»

ثم كان من كلماتهم فى عدم الايمان بمحمد قولهم : ان الذى ينزل عليه بالوحى هو جبريل ، وان جبريل بينه وبينهم عداوة ، وقد رد الله عليهم بأن جبريل ما هو الا رسول ، نزله باذنه على قلب محمد ، وبأن ما نزل به جبريل لم يكن مخالفا لما عندهم ، بل كان مصدقا له ، وكان هاديا ومنقذا من الضلال ، واذن فعداوة جبريل ، عداوة لمن نزله ، وتكذيب منهم لما عندهم ، وعداوة للهداية . والعاقل لا يرفض الهداية أيا كان مصدرها ..

ثم يوضح الله الحق فى هذا الشأن ، وهو ان ما نزل به جبريل أو غيره من الملائكة على محمد ، أو على غيره من الأنبياء هو فى حقيقته من الله وبأمر الله ، فمن اتخذ أحدا منهم عدوا فقدعادى الله.. ومن عادى الله ، عاداه الله : « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ، من كان عدوا لله وملائكته ورسله ، وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين »

الاسـلام دين الفطرة

ثم أخذ يطمئن النبى صلى الله عليه وسلم بأن ما أنزله عليه من آيات بينات واضحة لا يكفر بها الا من فسد طبعه ، وزاغ عن فطرته . فلا تكترث يا محمد بكفر هؤلاء الذين فسقوا عن أمرنا ، وكلما عاهدوا عهدا

نبذه فريق منهم ، وهذا شأنهم فى العهود ، وهو كشأنهم فيما ينزل مصدقا لما معهم . وتكذيبهم لما يصدق ما معهم تكذيب لما معهم ، وبهذا يصيرون كأنه لم ينزل عليهم شيء ، وكأنهم لا يعلمون

ما كفر سليمان وما ضل الملكان

نبذوا هداية الله قديمها وحديثها ، وأخذوا يصرفون الناس عن النظر فى الحقائق بالأوهام والأكاذيب ، التى كان يخترعها المردة المفسدون عن ملك سليمان ، وعما أعطاه الله للرجلين الصالحين ببابل هاروت وماروت ..

كانوا يخترعون ان ملك سليمان أساسه السحر والشعوذة . وان الملكين عندهما أشد أنواع السحر التى تفرق بين المرء وزوجه ، ولمثل هـذه الأحاديث شيوع ، فشاعت بين الناس حتى تأثروا بها ، واتخذوها ديدنهم فى الحياة ، وشغلوا بها حتى صرفتهم عن كل خير وفضيلة . وقد بين الله الحق فيما اختلقوا على سليمان وعلى الملكين ، وقرر أن سليمان ما كان ساحرا وما كفر بنعمة ربه ، انما كان هاديا ورسولا ، وان الملكين : الرجلين الصالحين ما كانا بمفسدين فى الأرض ، ولا بمدلسين على الناس ، وانما كانا ناصحين أمينين : « وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر » ، ولكن المفسدين أنكروا على سليمان النبوة والملك الالهى ، كما أنكروا فضل الله على الرجلين الصالحين فى معرفة خصائص الأشياء وأسرار النفوس ، وزعموا ان ما عندهما وما عند سليمان سحر وشعوذة ، وبهما بلغا ما بلغا ، فاتبعوه على ما رسموا وتخيلوا ، وأخـذوا ينفثون به فى الروابط البشرية لتحل ، والصلات الانسانية لتتقطع : « يفرقون به بين المرء وزوجه » ، بين الوالد وولده ، بين الأخ وأخيـه ، بين الصـديق وصديقه ، وبالتالى بين الرسول وقومه ، وبين الناس وهداية الله : « وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون »

وعبرتنا من تلك القصة أن نعنى بالحقائق النـافعة ، ولا نشغل أنفسنا بالأوهام والخيالات

ثم تحذر الآيات المؤمنين مخاطبة النبى ببعض الكلمات التىكان يستغلها المعاندون فى الاستهزاء بالرسـول ، وتأمرهم بالسمع والطـاعة وتتوعد المستهزئين بالعذاب الأليم . ثم ترشد الآيات الى أن عناد الكافرين منشؤه كراهتهم أن ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، ولكن الله يختص برحمتـه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم

الربع السابع :

المعجزة شان من شئون الله

* والحديث فيه أيضا لا يزال فى بنى اسرائيل ، وقد كان من كلماتهم فى التأثير على الناس وصرفهم عن الايمان بمحمد ، انه لم يأت بمعجزة تدل على انه رسول من عند الله ، وكانوا يطلبون معجزات مثل معجزات موسى وعيسى .. وكان العرب مثلهم فى هذا الشأن ، فرد الله عليهم بأنه لا يترك معجزة من المعجزات السابقة التى يذكرونها ويطلبون مثلها ، أو التى أنساهم اياها فلا يذكرونها ، الا أتى لرسوله محمد بمعجزة هى خير من المعجزات السابقة ، أو مثلها على الأقل فى الدلالة على صدقه : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها »

فالمعجزات شأن من شئوننا ، نختار منها ما نعلم أنه أوفق للمصلحة ، وأقدر على الاقناع وأنسب للعصر . ثم أخذ يذكرهم بسؤال أسـلافهم لموسى ، وحذرهم أن يسألوا محمدا كما سئل موسى من قبل ، وأشـار الى ان هذا عدول عن الايمان الى الكفر : « ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل» . وفى هذا تحذير لضعاف الايمان من المؤمنين أن يسمعوا لكلامهم ، أو يسيروا فى طريقهم وقد أرشـدهم الى أن هؤلاء

(*) من الآية ١٠٦ الى نهاية الآية ١٢٣ من سورة البقرة

المشككين يودون أن ترجعوا كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاحذروا التأثر بهم ، ولا يحملنكم بغضهم اياكم أن تعتدوا عليهم : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره » ، وعليكم بتطهير أنفسكم بالصلاة ، وتقوية روابطكم بالزكاة : « وما تقــدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله »

ثم يعود فيذكر بغرور هؤلاء المكذبين ، وزعمهم انه لن يدخل الجنة الا من كان منهم ، ويطالبهم ببرهان ذلك ان كانوا صــادقين . ويقرر أن أساس الأجر عند الله هو اسلام الوجه لله ، والاحسان الى عباد الله : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

مسلك مخرب

ثم أخــذ يطمئن المؤمنين بأن خطــة هؤلاء فى التشكيك والتكذيب والانكار ، ليست شأنا خاصا بكم ، وانما هى شأنهم حتى فيما بينهم : ينكر بعضهم على بعض ، ويجهل بعضهم بعضا ، والكتاب بين أيديهم ، يزعمون أنهم يؤمنون به ، وانهم أرباب الدين الخــالد . وبهذه الخطة الفاسدة التى فرقت كلمة الله اعتدى بعضهم على بعض ، وتحاربوا حتى خربوا أماكن العبادة ، ومنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وتقام عبادته . وما كان لهم أن يختلفوا فى مثل هذا الشأن ، ولا أن يعتدى بعضهم على بعض بسببه ، فلله المشرق والمغرب ، يتعبد فى كل مكان : « فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم » . ولم تقف بهم هذه الخطة الفاسدة عند حد الاعتداء عليكم ، أو اعتداء بعضهم على بعض ، بتخريب أماكن العبادة والتقديس ، وانما امتدت أهواؤهم الى الجانب الأقدس ، فزعموا أن لله ولدا ، وطلبوا أن يكلمهم أو يخصهم بآية من عنده ، فيرد عليهم بأن له ما فى السموات والأرض ؛ وبأن كل من فيهما قانت له وخاشــع ، وانه خالقهما ومدبرهما ، وانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون . واذا كان هذا شأنه فى الملك والتصريف والايجاد ، فكيف يكون له ولد ينفصل

منه وينسب اليه بالجزئية التى هى أساس البنوة والأبوة : « لم يلد ولم يولد » . ويرد عليهم فى طلب مكالمته اياهم : بأنه طلب التعنت والاعراض عن الآيات : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون »

توجيه ونصح

ثم وجه الخطاب الى النبى صلى الله عليه وسلم بتأكيد ارساله بالحق بشيرا ونذيرا ، وبأنه غير مسئول عن كفر من كفر ، واعراض من أعرض ، وبأن هؤلاء لا يرضـــون عنك حتى تترك ما أنت عليه من رســالة ربك وتتبع ملتهم . ثم تحذر الآيات اتباعه فى شخصـــه أن يتبعـــوا أهواءهم ، ويتأثروا بهم ، بعد ما ظهر لهم من العلم والهدى ، وتنذرهم اذا هم سلكوا طريقهم بحرمانهم من ولاية الله ونصرته : « مالك من الله من ولى ولا نصير»

هذا شأن الكثرة الســاحقة من هؤلاء الذين كنت يا محمد تطمع فى ايمانهم وسرعة تلبيتهم قد بيناه ، ومع هذا ففيهم من يُرجى خيره ، وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته ، ويتفهمون حكمه وأسراره ، فأولئك هم الذين يصـــح أن تعلق بهم رجاء الايمان ، وتطمـــع فى تلبيتهم دعوتك : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به » ، أما الأكثرون من الرؤســاء المعــاندين ، والمقلــدين الجاهلين ، فأولئك هم الخاسرون ، الذين لاينبغى أن تكترث بهم ، ولا أن تطمع فى ايمانهم ..

ثم تعود الآيات وتستحثهم على الايمان ، وتنــاديهم كما نادتهم أولا بنسبتهم لاسرائيل ، نبى الله يعقوب ، وتذكرهم بنعمــة الله عليهم ، وأنه لا يليق بمن كرمه ربه ، وفضله بالحكم والنبوة ، أن يكون حظه من هداية الله الجحود والانكار . وفى سبيل هذا تنذرهم كما أنذرتهم من قبل باتقاء يوم الحساب والجزاء : « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ، واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » ..

سورة آل عمران

الربع التاسع :

أصيب المسلمون فى غزوة أحد بما سجلته سورة « آل عمران » وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيرا من كلمات الشماتة والتخذيل : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا » ، « لو نعلم قتالا لاتبعناكم » « لو أطاعونا ما قتلوا »

جزاء الشهداء

(*) وقد أرشد الله فى هذا الربع الى حملة من العلاج الذى يحفظ على المسلمين قوتهم المعنوية من التأثر بكلمات الشماتة والتخذيل . وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بقتلى أحد ، الذين جادوا بأنفسهم فى سبيل الله ، انهم ليسوا — كما يظن هؤلاء — أمواتا توارت أجسامهم ، وطويت صفحتهم ، وذهبوا الى حيث لا يذكرون ، بل لقد ارتقى بهم ايمانهم واستشهادهم الى العندية القدسية ، تشرق عليهم فيها أنوار التجليات ، ويتمتعون بما أعد لهم من الفضل الالهى : « فرحين بما آتاهم الله من فضله » ، وفرحين بما رأوا من المكانة التى أعدت لاخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا ، يشقون طريقهم بايمان مثل ايمانهم ، وجهاد مثل جهادهم . تركوهم يستجيبون لله وللرسول ، غير مكترثين بأراجيف المرجفين ، ولا فتن الضالين المكذبين ، بل قالوا : حسبنا الله ، واتبعوا رضوانه . وما زادتهم الفتن والأراجيف الا ايمانا على ايمان ، وقوة على قوة : « الذين

(*) من الآية ١٧١ الى نهاية الآية ١٨٥ من سورة آل عمران

قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل »

وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بهؤلاء المرجفين ، ان ارجافهم — وهم الشياطين المفسدون — لا يؤثر الا على مثل أتباعهم ضعاف الايمان ، فاسدى العقيدة ، وليس له سلطان على المؤمنين الذين يملأ الايمان قلوبهم فيحفظها من التأثر بالأراجيف والفتن ، وسينزل بهؤلاء المفسدين الجزاء الذى يستحقون : « انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين » ..

عبر من الهزيمة

وكان مما أرشدوا اليه حكمة الهزيمة التى أصيبوا بها وهى : ان الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة ، وليس من شأنه فى ذلك أن يوحى بما فى الضمائر من خبث ونفاق ، وانما شأنه وسنته أن يصطفى رسلا يدعون الى الايمان وفى ظل السلم يختلط الكاذب بالصادق ، والخبيث بالطيب ، فيجرى الله أحداثا ويسوق شدائد ، تميز الخبيث من الطيب وتطهر جماعة الايمان الحق ، فيوافيهم بالنصر والتأييد : « فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم »

عاقبة البخلاء

وكان مما أرشدوا اليه ان هؤلاء الذين يقبضون عن الانفاق فى سبيل الله ، ويبخلون بما آتاهم الله من فضله : « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » ويكون حملا ثقيلا فى أعناقهم لايستطيعون التخلص من تبعاته ، وسيرجع ما بأيديهم الى الله الذى له ميراث السموات والأرض ، والذى أنعم عليهم به من فضله ليبلوهم أيشكرون أم يكفرون

وبهذه المناسبة عرضت الآيات للتحقير من شأن كلمات كان يلقيها الأعداء بقصد الحط من مكانة الرسالة وصاحبها عليه الصلاة والسلام : « ان الله فقير ونحن أغنياء » ، « ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار » . وتتوعدهم بالعذاب الأليم ، وتأمر الرسول بأن

يرد عليهم بقوله : « قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين » ؟

تسلية

ثم تأخذ فى تسلية الرسول فى تكذيب القوم له ، بأن اخوانه السابقين قد كذبتهم أممهم من قبل بعد أن جاءوهم بالبينات ، وكان جزاء الرسل لما صبروا النصر والتأييد ، وجزاء القوم المكذبين الخزى والدمار . وتلك سنتنا مع الأولياء والأعداء ، وستنقضى هذه الدنيا وتذهب كل النفوس الى بارئها وتوفى كل نفس ما عملت ، ويرى المؤمنون الصادقون ما أعد لهم من نعيم دائم ، ويرى الكافرون المكذبون ما أعد لهم من عذاب أليم : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » ..

الربع العاشر :

اعداد واستعداد

(*) بعد أن أرشد الله المؤمنين الى حكمة الهزيمة التى أصابتهم فى أحد ، لفت أنظارهم الى ان ما أصابهم فى تلك الغزوة ليس آخر ابتلاء يصيبهم من أعدائهم ، وأكد لهم انهم سيختبرون فى مستقبل حياتهم بالشدائد فى الأموال والأنفس ، بالفعل وبالقول من فريقى المعارضين لهم ، وسيرون أذى كثيرا .. فلا يظنوا ان الأمر يقف عند حد هذه الغزوات الأولى ، فمرحلة الجهاد طويلة ، وتضحيات النصر كثيرة ، فليوطنوا أنفسهم عليها ، ويستعينوا على تحملها بالصبر والتقوى : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور »

(*) من الآية ١٨٦ الى آخر سورة آل عمران

ثم أخذ يذكرهم بسوء عاقبة أعدائهم بجرائمهم التى اقترفوها وصدوا بها الناس عن الايمان بالحق ، فهم قوم نقضوا ميثاق الله ، ونبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، وفرحوا بما ارتكبوا فى جنب الله ، وعملوا جهدهم على أن يعتقد الناس فيهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وحملوهم بذلك على أن يعظموهم وأن يسمعوا لدعوتهم فى التأليب ضد الحق الذى يدعو اليه الرسول وصحبه المخلصون : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم »

الامر والتدبير لله وحده

وبعد أن تفرغ الآيات من ارشاد المؤمنين الى ما يجب عليهم من الصبر والتقوى فى مواقف الجهاد والاخلاص فى الدعوة ، والى ما سينزل بخصومهم من عاقبة كيدهم وطغيانهم ضد الحق وأهله ، تأخذ فى تقرير ربوبية الله ، وانه صاحب الأمر والملك والتدبير فى السموات والأرض ، لا شأن لأحد فيهما سواه . فهو القادر على الوفاء بما وعد المؤمنين ، وما توعد به الكافرين : « ولله ملك السموات والأرض والله على كل شىء قدير » ..

وجوب النظر فى آيات الله

ثم تأخذ الآيات فى فتح أبواب العظة والاعتبار ، ودلائل القدرة للذين خلصت قلوبهم من الأهواء والشهوات ، وتحكم التقاليد الباطلة : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »

ثم تصف أولى الألباب بصفتين : هما الحبل المتين الذى يصل الانسان بربه ويقيه شر المآثم والطغيان فى هذه الحياة : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » أى يذكرونه بعظمته وجلاله وقدرته فى جميع أوقاتهم ، وفى جميع شئونهم ، ثم يكون هذا الذكر نتيجة لتدبرهم فى خلق السموات والأرض وما فيهما من اتقان وابداع ، وعجائب وأسرار ، فليس

ذكرا ينطلق به اللسان ، ولا يدفع اليه الجنان ، انما هو ذكر ينبع من القلب الى سماء الرب ، فيرفع همة صاحبه فينطلق لسانه بالدعاء وقلبه بين الخوف والرجاء : « ربنا ما خلقت هــذا باطلا سبحانك » تنزيها لك عن الباطل فى خلقك وفعلك وحكمك : « فقنا عذاب النار » بدوام توفيقك وعنايتك . ثم يذكرون مآل غضبه سبحانه على الذين ظلموا الحق فأنكروا ربوبيته وكفروا برسالته ، فيكون دعاؤهم : « ربنا انك من تدخل النــار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار » .. ثم يؤكدون تلبيتهم لدعوة الحق التى ارتضاها لعباده على لسان نبيه ، ويلتمسون منه المغفرة والانعام عليهم بما وعد المؤمنين المخلصين فيكون قولهم : « ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد »

***

هــذا موقف الذاكرين لربهم ، المفكرين فيما خلق ودبر ، عرف منهم الصدق فى الايمان والذكر والتفكير والتنزيه : « فاستجاب لهم ربهم انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض » لا تفاضل بينكم الا بالعمل والتقوى ، وقيام كل بما طلب منه

ثم يذكر بعض أسبــاب النعيم وتكفير السيئات ، والمثوبة الدائمة ، ويخص أهم ما يطلب من المؤمن وقت ثورة الكفر على الايمان ، فيذكر الهجرة والاخراج من الديار ، والايذاء فى سبيل الله ، والقتال والقتــل ، ويجعل هذه أبرز دلائل الايمان ، وأقرب ما يوصل الانسان الى ثواب الله ورضوانه : « والله عنده حسن الثواب »

تسلية وتوصية

ثم أخذ يسليهم عما كلفوه من مشاق الجهاد ، ويحذرهم الاعتزاز بتقلب الذين كفروا فى البلاد ، ويؤكد لهم انه متاع قليل ، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ..

أما المؤمنون الذين اتقوا ربهم فمأواهم جنات تجرى من تحتها الأنهار

ثم يرشد احقاقا للحق الى ان من أهـل الكتاب ؛ الذين يحاربونكم ويناصبونكم العداء ، طائفة تؤمن بالله ، وتؤمن بما أنزل اليكم وما أنزل اليهم ، خاشعين لله ، لا يؤثرون دنياهم الفانية على رضا الله الباقى . ويبين ان هؤلاء لهم أجرهم عند ربهم ، وفى هذا اطماع لغيرهم من أهل الكتاب فى أن يعدلوا عن موقفهم من المؤمنـين ، وأن ينهجوا منهـج اخوانهم الخاشعين لله ، المحافظين على حدوده

ثم تختم السورة بهذه الوصية الفذة ، التى بها يتحقق الخير كله ، وبها يعظم النصر ويحق الجزاء ، ويتم الفلاح : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »

سورة النساء

الربع الأول :

(*) سورة النساء أطول سورة مدنية بعد سورة البقرة ، وهى سورة مليئة بالأحكام التى ينظم بها المؤمنون شئونهم الداخلية ، والأحكام التى يحفظون بمراعاتها وتنفيذها كيانهم واستقلالهم ، ويدفعون بها كيد الكائدين ، واغارة المحاربين . وسميت بسورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التى تتعلق بهن ، بدرجة لم توجد فى غيرها من السور ، ولذلك أطلق عليها « سورة النساء الكبرى » فى مقابلة « سورة النساء الصغرى» التى عرفت فى القرآن بسورة « الطلاق »

الناس من أصل واحد

وقد افتتحها الله بنداء الناس كافة ، وأمرهم جميعا بتقوى الله ، وذكرهم فى سبيل ذلك الأمر بنعمة الخلق والايجاد من نفس واحدة « خلق منها زوجها » وكان منها الناس جميعا رجالا ونساء ، وبذلك جمعهم أصل واحد : أبوة واحدة ، أمومة واحدة ، وربطت بينهم رحم واحدة ، هى رحم الانسانية العامة . ثم أعاد الأمر بتقوى الله الذى اليه تفزع القلوب ، وتتوثق العلائق ، كما أمرهم بتقوى الأرحام التى بينهم والتى ترجع الى أصل واحد ، كانت منه الشعوب ، والقبائل ، والأسر . وقد مهدت بهذا كله للأحكام التى وضعها الله للناس ليحفظ قويهم ضعيفهم

(*) من أول سورة النساء الى نهاية الآية ١١

رعاية اليتيم

ومن هنا ذكرت أحكام اليتيم الذى فقد أباه ، والسفهاء الذين لا يحسنون التصرف ، والنساء اللاتى تنتظمهن ولاية الرجال ، ففى اليتامى أمرت بحفظ أموالهم حتى يتسلموها عند رشدهم كاملة غير منقوصة ، وحذرت الاحتيال على أكلها عن طريق المبادلة « ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب » . أو عن طريق الخلط : « ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم » . ووصفت ذلك بأنه اثم كبير . كما أرشدت الى ترك التزوج من اليتامى عند خوف استغلال الحياة الزوجية فى أكل أموالهن ، وعدم العدل معهن . وأرشدت الى أن لهم فى غيرهن من النساء متسعا للتزوج منهن ، واحدة ، ومثنى ، وثلاث ، ورباع

وذكرتهم فى هذه الحالة أيضا بالعدل بين النساء حتى اذا لم يأنس الرجل من نفسه القدرة على العدل بين المتعددات من الزوجات ، وجب عليه الاقتصار على واحدة ، تنزيها لنفسه ، واستبراء لدينه : « ذلك أدنى ألا تعدلوا » ..

تشريع المهور

وبهذه المناسبة أمرت باعطاء الزوجات مهورهن التى أطلق عليها « نحلة » أى فهى ليست أجرا ، ولا ثمنا ، وانما هى عطاء يوثق المحبة ، ويربط القلوب ويديم العشرة

حفظ اموال اليتامى والسفهاء

وفى جانب السفهاء وهم الصغار الذين لا يعقلون والمجانين والمعاتيه ، وكل من لايحسن التصرف ، حذرت دفع الأموال اليهم احتفاظا بها لهم ، وابقاء عليها للأمة ، فهى فى الواقع مال الجميع . وأشارت الى تنميتها واستثمارها عن طرق التنمية والاستثمار المشروعة ، وجعلت رزقهم وكسوتهم من أرباحها لا من أصولها ، كما أمرت بمعالجة السفهاء من السفه بارشادهم الى الحكمة وحسن التصرف وفائدة حفظ الأموال .

وأمرت بمثل ذلك فى جانب اليتامى : « وابتلوا اليتامى » أى اختبروهم فى المعاملات حتى يتعودوا البيع والشراء . ثم حددت الوقت الذى تسلم فيه الأموال اليهم وهو وقت الرشد ، بعد أن يصلوا الى سن البلوغ ؛ فمن لم يبلغ لا تسلم اليه أمواله ، ومن بلغ ولم يرشد لا تسلم اليه أمواله . وكانت تلك التعاليم مصدرا لقانون المجالس الحسبية فيما يختص بالحجر على السفيه ، والقوامة عليه وعلى اليتيم . ثم أباحت الآية للأوصياء أن يأخذوا من أموالهم بقدر كفايتهم اذا كانوا فقراء : « ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف » . ثم ختمت الآيات هذه الأحكام بتهديد الأوصياء فى أبنائهم الذين يتركونهم فى كفالة غيرهم ، ليفعلوا مع أبناء غيرهم ما يحبون أن يفعل الغير مع أبنائهم ، كما هددتهم بالعذاب الأخروى الذى صورته الآيات بأقوى ما يقلع من النفس جشعها : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم » ، « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » ..

الارث فى الاسلام

وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الأطفال ، ويقولون لايرث الا من طعن بالرماح وذاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة ، فأبطل الله ذلك وجعل الميراث بسببين اثنين : النسب والزوجية ، وبهما عم الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، وجاء فى ذلك على وجه العموم

أولا : قوله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا » ..

ثم جاءت آيات الربع الثانى وفيها التفصيل والتصريح بما يعم الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، والأزواج والزوجات ، ثم أرشدت الآيات الى مبدأ له أثره العظيم فى تطييب نفوس الذين يحضرون القسمة والتوزيع

من الفقراء والمساكين والأقارب الذين لا يرثون ، « واذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا »

وهذه الآية مستند قوى لمن أراد لضريبة التركات مستندا الهيًا كريما من كتاب الله ووحيه ، أما المبادىء التى روعيت فى توزيع التركات وتقسيم الميراث ففي قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثـل حظ الأنثيين .. »

الربع الثانى :

تفصيل الميراث

(*) بين الله فى هــذا الربع ، وفى آخر آية من السورة ، الوارثين والوارثات ونصيب كل وارث بالوصف الذى قرره الله سببا للاستحقاق ، فذكر الارث بالبنــوة ، وبالأبوة ، وبالأمومة ، وبالزوجيــة ، وبالأخوة وأهمل استحقاق الارث بالتبنى الذى كان معروفا عند الجاهلية . وقد جاء ذلك كله فى ثلاث آيات : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ... » ، « ولكم نصف ما ترك أزواجكم ... » ، « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ... » وفى هذه الآيات الثلاث بين ميراث الأبناء : « للذكر مثل حظ الأنثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف » وميراث الوالدين : « ولأبويه لكل واحــد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه أبواه ، فلأمه الثلث ، فان كان له اخوة فلأمه السدس » . وميراث الزوج : « ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد ، فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن » . وميراث الزوجة : « ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ، فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم » . ولا يخفى ما فى تقرير الارث بالزوجية من تركيز للأسرة على أساس قوى فى تبادل التعاون

(*) من الاية ١٢ الى نهاية الآية ٢٣ من سورة النساء

والشعور بالمسئولية المشتركة ، حتى كأن الزوجية نوع من النسب والقرابة الأسرية ..

ميراث الاخوة

أما ميراث الأخوة فيتبع جهة الأخوة ، فميراث أخوة الأمومة ذكر بقوله : « وان كان رجل يورث كلالة (من لا ولد له ولا والد) أو امرأة ، وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث »

وميراث الأخوة الأشقاء ، أو لأب ذكر فى الآية الثالثة التى ختمت بها السورة : « ان امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد ، فان كانتا اثنتين فلهما الثلثـان مما ترك ، وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين »

وجدير بالمؤمنين اذا قرءوا هـذه الآيات أن يتدبروا قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم » ، وقوله : « وصيـة من الله » ، وقوله : « يبين الله لكم ان تضلوا » وقوله : « تلك حدود الله » ، وقوله : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين »

جدير بهم أن يتدبروا تشديد الله فى المحافظة على أحكام الميراث كما بينها بيانا شافيا ، ليس محل اجتهاد ، ولا قابلا للتغيير ، فلا يتحدث منهم متحدث بالاستظهار على تشريع الله ، ولا تغيير أحكامه ، وكتاب الله بين واضح ، يتلوه الصغير والكبير ، ويعرف حكمه الفقيه وغير الفقيه

الارث بعد قضاء الديون وتنفيذ الوصـايا

وقد صرحت الآيات بأن تقسيم التركة على المستحقين انما يكون بعد قضاء الديون ، وتنفيذ الوصايا التى لم يقصد بها حرمان مستحق ، أو ايذاء وارث ، ومنه يعلم بطلان التصرفات التى تجىء على أسـاس من حرمان بعض الورثة ، كعادة حرمان الاناث بالبيع الصورى ، أو بالوقف

الذى أراح الله الناس منه : « من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار، وصية من الله والله عليم حليم »

حفظ الاعراض

ثم تنتقل الآيات الى نوع من التأديب لمن يرتكب الفاحشة من الرجال والنساء وهو من قبيل التنبيه على الواجب بعد التنبيه على الحق : ففى فاحشة النساء : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا » . وفى فاحشة الرجال : « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما » ..

تعزير يؤدب به النساء أو الرجال فى فعل الفاحشة الخاصة بالجنس حتى يتوبوا ، والتوبة مقبولة عند الله على وجه اليقين اذا فعل الذنب بدافع من الشهوة أو الغضب ، وسارع المذنب الى الاقلاع والرجوع الى الله . أما من يفعلها ويرجىء التوبة الى أن يحضره الموت ويستشعر مقدماته ، فتوبته مرفوضة قطعا ، وهى كتوبة الذين يموتون وهم كفار .. أما توبة الذين يفعلون السيئات عن ألف واطمئنان ، ثم لا يتوبون عن قرب منها ، فالآية لم تصرح بحكم الله فيها ، فهو اليه ان شاء قبلها وغفر ، وان شاء رفضها وعاقب ، فليكن المؤمن منها على وجل : « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » ، « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن »

تحذير من عادات جاهليـــة

ثم تعود الآيات فتحذر من بعض العادات الجاهلية التى كانت تعامل بها النساء : كان الرجل يرث نساء أقاربه ، ويتخذها كالمتاع ليأخذ مالها . وكان يضايق زوجته حتى تبذل له المهر الذى دفعه لها ليتزوج به غيرها ، وفى هذا وذاك اجحاف ايما اجحاف بالضعيف الذى لايملك أن يدفع عن نفسه ، وفيه تعريض للحياة الزوجية للاضطراب والتحلل ، وفيه اهمال

لحق الرحم الانسانى العام ، وفى ذلك يقول الله : « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » ويقول :

« وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا »

الربع الثالث :

المحرمات من النساء

(*) والكلام فيه ، لايزال فى الأسرة ، وفيما يختص بتكوينها ، وترشد الآيات هنا الى أصناف لا يحل التزوج بهن ، ولا تكوين الأسرة منهن ، وذلك لما بينها وبين الرجل من صلات لا ينبغى تعريضها للفساد ، ويجب أن ترفع عن مزالق الحياة الزوجية . ومن هنا حرم التزوج بحلائل الآباء ، وقد كان العرب يفعلون ذلك ، وقال فيه القرآن : « انه كان فاحشة وساء سبيلا » ، وحرم التزوج بالأم وان علت ، والبنت وان نزلت ، والأخوات ، والعمات ، والخالات ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وحرم بسبب طارىء وهو الرضاع المكون للبنية مثل ما يحرم بالقرابة . واقتصرت الآية على الأمهات والأخوات ، وجاء فى السنة الصحيحة : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وحرمت أم الزوجة وان لم يكن الرجل دخل ببنتها ، وحرمت بنت الزوجة اذا كان الرجل قد دخل بأمها . وحرمت حلائل الأبناء الذين هم من الأصلاب ، وحرم تحريما مؤقتا الجمع بين الأختين ، ومن فى معناهما ، كالمرأة وعمتها وخالتها ، وحرمت المتزوجات واستثنت الآية منهن المهاجرات المؤمنات اللاتى تركن أزواجهن الكفار ، وتبين صدق ايمانهن : « فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار

(*) من الآية ٢٤ الى نهاية الآية ٣٥ من سورة النساء

لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ولا جناح عليكم أن تنكحوهن اذا آتيتموهن أجورهن »

ثم صرحت الآيات بحل ما وراء هذه المحرمات ، مشيرة الى فائدة الزواج من احصان الرجال والنساء ، والبعد عن المسافحة والمخادنة ، كما أوجبت بذل المهور . وأشارت الى لزوم تخير الزوجات من العناصر الطيبة وهى الحرائر المؤمنات ، ومنعت التزوج من غيرهن الا عند العجز مع خوف العنت والمشقة ، والوقوع فى الفاحشة ، ومع ذلك فقد قال الله تعالى : « وان تصبروا خير لكم » . وذلك محافظة على البيئة الصالحة التى يكون منها النسل ، ويتربى فيها

النهى عن اكل أموال الناس بالباطل

ثم عرضت الآيات بعد أن أرشدت الى الهدف من هذا التشريع وهو الهداية الى سبل السعادة والبعد عن حمأة الشهوات والمفاسد ، عرضت الى العنصر الثانى فى حياة الأسر والجماعات وهو « المال » فنهت عن أكله بالباطل ، والباطل كل ما لم يكن سببا مشروعا فى حل الأموال كالسرقة ، والغصب ، والرشوة ، وأجرة البغاء ، والربا ، وما الى ذلك مما نهى الله عنه وله أثره السيىء فى سلالة المجتمع . ولما كان الاعتداء على المال ، من وسائل الاعتداء على النفس جاء فى هذا المقام قوله تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم » ، وتوعدت الآيات بأشد العذاب من يعتدى على أخيه فى ماله أو نفسه ، كما وعدت بتكفير صغائر الذنوب اذا ما اجتنبت هذه الكبائر : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » . ولما كان معظم أسباب الاعتداء ، تطلع المقل الى ما بيد المكثر ، وتمنى أن يكون ما فى يد غيره فى يده ، نهى الله عن ذلك ، وبين أن لكل كاسب وعامل ثمرة عمله وكسبه فليستغل كل انسان مواهبه وقدرته فى الكسب والعمل ، ولا يتطلع الى شىء غيره : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله »

أما المال الذى يورث ولا يكتسب بالعمل فقد بينت الآيات المستحقين فيه وانصباءهم على حسب ما يعلم الله من مصلحة عباده ، وهم أصحاب القرابة والزوجية ، فحافظوا على قاعدة الكسب ، وحافظوا على قاعدة التوزيع ، ولا يعتد بعضكم على بعض لا فى كسبه ، ولا فى ميراثه : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم » ..

قوامة الرجل

ولما تضمن تشريع الله للرجال والنساء تفاوتا فى الأعمال والانصباء ، وكان ذلك مبعثا لفكرة التسوية عند من لا يحكمون الطبيعة ولا يفهمونها ، بينت الآيات أن الحكمة فى ذلك ترجع الى طبيعة كل من الرجل والمرأة ، فكلف الرجل ، بما له من قوة ، بالجهاد والأعمال الشاقة ، ومنح بما عليه من تبعات مالية وغيرها نصيبا أكثر من نصيب المرأة ، وبهذا وذاك كانت له القوامة عليها : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم »

معنى قوامة الرجال

ثم أرشدت الآيات الى أن تلك القوامة ليست قوامة استعباد وتسخير وانما هى قوامة رئاسة ونصح وتأديب ، كالتى بين الرجل وأبنائه ، والراعى ورعيته . ومن هنا لم يكن لتلك القوامة أثر بالنسبة لصنف الصالحات القانتات ، وانما كان أثرها بالنسبة لمن يظن فيها النشوز والانحراف ، وبها كان الوعظ والتأديب الذى يجرى فيها بين الرجل وأبنائه : « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » . وكان اذا ما اشتد النشوز ، ووصل الى الشقاق والخلاف الحاد ، انتقل العلاج من التأديب الذى يباشره الزوج الى التحاكم عند الأهل والأقارب الذين يهمهم شأن الزوجين ، ويعز عليهم أن تدهور الأسرة ، ويتشرد الأطفال .. وبقدر نية المحكمين ، واخلاصهم فى ارادة بعث الحياة الطيبة بين الزوجين ، يسدد الله خطاهم ، ويمنحهم من

الوسائل ما يعيدون به الى البيت هدوءه واستقراره

« وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا »

الربع الرابع :

الاحسان فى كل شىء

(*) والكلام فيه يتجه الى حفز النفوس نحو العمل بالأحكام التى بينتها السورة فيما يختص باليتامى والأسر وتكوين البيوت ، وذلك عن طريق التوجيه الى الاحسان العام ، والى ان سعادة المؤمن ليست معقودة بالاحسان الى أسرته وأقاربه فقط ، وانما ترتبط بالاحسان الى كل ما يحتاج الى الاحسان

ومن هنا أمر بالاحسان فى عبادة الله ، وهى أصل الخير كله ، والاحسان فيها افراده بالعبادة والتقديس ، دون أن يكون لغيره شركة ما فيما هو من خصائص الألوهية ، ثم ذكر الاحسان الى الوالدين لأنهما عماد الأسرة ، وفيها يشب المرء على الاحسان ، ثم يمتد الاحسان منهما الى الأقارب والجيران والأصحاب ، والى كل أرباب الحاجات ، وبهذا ترتبط وحدات الأمة على أساس من الرحمة ، وتصبح تلك الوحدات أسرة واحدة ، متعاونة فى السراء والضراء ، فيتحقق الرحم الانسانى العام الذى افتتحت بتقريره بين الناس ، ولفت النظر اليه ، سورتنا الكريمة

ثم تشير الآيات الى أن التقصير فى هذا الحق الاجتماعى شأن صنفين من الناس : صنف يختال ويتكبر ولا يرى لغيره حقا عليه ، فيبخل بنعمة الله على عباده ، وبذلك يشيع خلق البخل بين الناس ، فيبخلون كما يبخل ، وينقطع ما بينهم من صلات ، وتحدث بينهم الضغائن والأحقاد : « والذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » .

(*) الايات من ٣٦ الى نهاية الاية ٥٧ من سورة النساء

وصنف يتعاظم على النــاس فيحسن اليهم ، ولكن ابتغــاء مدحهم اياه ، وتعظيــمهم له ، دون أن يدفعه الى ذلك شــعور بحق ، أو ايمان بالله : « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر». ثم يسجل القرآن على هذين الصنفين ، ان الذى أغراهم بالبخل والرياء على هذا الوجه ، الذى يدل على حرمان النفس من الفضيلة ، انما هو الشيطان ، منبع الشر والرذيلة : « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » ثم تثير الآيات عجب الناس من هؤلاء فى اعراضهم عن الايمان بالله واليوم الآخر ايمانا يدفعهم الى القيام بالحقوق ، والاخلاص فى أدائها على وجه يغرس الفضيلة فى نفوسهم ، ويكفل لهم ثواب الله ورضاه ، مع انهم لو أخلصوا لما فاتهم شيء مما يحبون ، ولحصلوا فى الآخرة على النعيم الدائم والجزاء الحسن : « ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها » ، وكيف يكون حال هؤلاء يوم يجمع الله النــاس ويشــهد على كل أمة رسولها ؟.. « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا »

علاج لادواء النفوس

ثم تسوق الآيات للمؤمنين علاجا من شأنه اذا قاموا على وجهــه هذب نفوسهم ، وطهر قلوبهم ، فلا تعرف الى البخل ولا الى الرياء سبيلا ، ذلكم العلاج هو « الصــلاة الخاشعة » عصمة الانسان من الفحشاء والمنكر : « ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين » . وأرشدهم فى ذلك الى تدبرها واستحضار عظمة الله فيها : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . ثم تلفت الأنظار الى تطهير الظاهر حتى تلتقى طهارته مع طهارة الباطن : « وان كنتم جنبا فاطهروا » . وتذكر بنعمة الله عليهم فى الاكتفاء بالطهــارة الرمزية ، وهى طهارة التيمم حين لا يقدرون على الطهارة الحقيقية ، وهى طهارة الماء . ثم تعرض الآيات بعد ذلك لحالة طائفة يعلم المؤمنون من أمرها مايعلمون ، من الاعراض عمــا آتاها الله من أحكام وهــداية ، وتحريف الكلم عن

مواضعه ، واتخاذها لأنفسها من عناوين التزكية كأبناء الله وأحبائه ، وما يوهمون به انهم فى غنى عن العمل بنصيبهم من كتاب الله وشرعه ، وفى أثناء ذلك تهددهم الآيات بقوله تعالى : « يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبـل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » ..

هذا ما يلفت الله نظر المؤمنين اليه فى وجوب الأخذ بأحكامه ، وعبرتنا منه أن نرتفع بأنفسنا عن مواطن الذين يبخلون والذين يراءون ، ونعصم أنفسنا عن مسايرة هؤلاء فى تحريف الكلم عن مواضعه ، واشتراء الضلالة ، وتزكية النفس بمجرد النسبة الى الرسول أو الاسلام ، فعلى هؤلاء الذين ينتمون الى كتاب الله ، ويقولون نحن مسلمون لله ، أن يتـدبروا هـذا التهديد الالهى ، وأن يعلموا أن هذا التهديد سنة الله مع كل من أعرض عن ذكره ، ونبذ شرعه وأحكامه ، وحرّف كلمه عن مواضعه ، ثم عليهم أن يستمعوا الى وعيد الله لمن حاد عن طريقه : « ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا ، كلما نضجت جلودهم بدلنـاهم جلودا غيرها ليـذوقوا العذاب » . ثم الى وعده لمن التزم حدوده وأحكامه : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا » ..

الربع الخامس :

الامانة والعدل

(*) والكلام فيه لايزال فى التشريع الداخلى الذى يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءها . وقد أرشدت الآيات هنا الى أن أساس الانتفاع بهذه الأحكام أمران لا تسلم أمة ولا تسـعد الا بمراعاتها ، والحرص عليهما ، وهما أساس الحكم الصالح ، وسبيل الحياة الطيبة : أداء الأمانات

(*) الايات ٥٨ الى نهـاية الاية ٧٣ من سورة النساء

الى أهلها ، والعدل فى الحكم بين الناس . والأمانة اسم للحق الذى أودع عند الانسان ، وكلف حفظه ليوصله الى صاحبه الذى يملكه ، أو الذى ينتفع به ، فيشمل المال ، وأداؤه تسليمه كاملا غير منقوص ، والعلم ، وأداؤه تعليمه على وجهه الصحيح ، والرأى ، وأداؤه ابداؤه لمن يحتاج اليه ، أو لمن بيده التنفيذ ، وأداء الأمانات يتناول تيسير طرق الوصول اليها ، كنشر الكتب المهذبة التى ينتفع الناس بها فى دينهم ودنياهم ، وتنقية التعاليم الدينية من البدع والخرافات والأساطير التى تفسد على النـاس دينهم وتصورهم ، كما يتناول تنظيم الطرق الزراعيـة ، وحفر الترع ، وانشاء المصانع ، كل ذلك مما يجب على الراعى تسهيله للرعية وهو امانة فى عنقه ..

اما العدل فى الأحكام فيرجع الى تحرى الحق بوسـائله ، والبعد عن الهوى والشهوة ، وقد أرشدت الآيات الى أن سبيل الأمانة والعدل انما هو اطاعة الله المشرع ، والرسول المبين ، وأولى الأمر ، القائمين على حدود الله ، الذين هم من الأمة ، يحسون احساسها ، ويهتمون بخيرها وسعادتها « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »

ثم تلفت الآيات أنظار المؤمنين الى طائفة تنبت فيما بينهم ، وتظهر ايمانها بشخصيـة الأمة ، وقلوبها تنكرها ، يزعمون انهم يؤمنون بدين الأمة وقانونها ، وهم فى الواقع ينطوون على ارادة التحاكم الى غير دينها الحق تبعا لشياطينهم ، وسيرا مع أهوائهم : « واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا »

***

وهذه نابتة السوء ، وجرثومة الشر ، يختبر الله بها كل أمة ، فاحذروهم واحذروا طريقتهم التى تفسد عليكم أمركم : « أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا »

ألا وان هؤلاء لا يقام لهم وزن عند الله ، ولا تحفظ لهم كرامة الا اذا تابوا وطهروا أنفسهم من رجس النفاق، وتعاونوا معكم على البر والتقوى،

وخضعوا لأحكام الله ، واتخذوها حكما فيما ينشـأ بينهم من خلاف أو يعرض لهم من حاجة : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »

ثم تلتفت الى أولئك المنحرفين وترشدهم الى ما فيه خيرهم من الامتثال لما يلقى عليهم من أحكام الايمان ، والانتفاع بثمراتها الطيبة : « ولو أنهم فعلوا مايوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا . واذن لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما » . ثم تختتم الآيات هذا التشريع الداخلى الذى تحدثت فيه من أول السورة ، تختمه بوعد كريم لمن يطيع الله والرسول فيه ، وتعدهم برفع مكانتهم الى مستوى الذين أنعم الله عليهم من عباده الأخيار « النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا »

الاستعداد للامن الخارجى بعد الداخـــلى

ثم تأخذ الآيات فى الارشاد الى ما يتوقف عليه استقرار الأمة من جهة خارجيتها ، فتأمر بأخذ العدة والاستعداد الدائم لمكافحة العدو الطارىء عليها ، المغتصب لها ، وتأمر بتطهير الأمة من عناصر الفساد والتخذيل التى تنبت منها وفيها ، وتربط حبالها بحبال أعدائها ، وتعمل فى سرّها على تمكين العدو من بلادها

ثم تعرض الآيات فى سبح طويل للتعامل فى سـبيل الله وفى سـبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، وترشد الى ما يتوقف عليه النصر ، معلية فى ذلك كله شأن الذين يقاتلون فى سبيل الله ، الذين يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة ، ويضحون بأنفسهم وأموالهم فى اعلاء كلمة الحق ، ورد كيد الغاصبين المبطلين : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا وان منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على اذ لم أكن معهم شهيدا ، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ، يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما »

سورة الأنعام

الربع السادس :

تعامى المعاندين عن الحجج

قال تعالى : « ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون »

(*) هذا هو الربع السادس من سورة الأنعام ، وسورة الأنعام ؛ هى سورة الحجاج العقلى بين الحق والباطل ، وقد سلكت فى حجاجها طريق الحكاية والتلقين ، تحكى بكلمة « قالوا » أو نحوها شبهة المبطلين ، وتلقن بكلمة « قل » ونحوها الحق وحجته . ومن شأن المبطلين فى كل زمان ومكان ، أن يتعاموا عن حجة الحق الواضحة ، ويلتمسوا ـ تبريرا لعنادهم واعراضهم ـ حجة ليؤمنوا بها ، ويقسموا أنهم ان جاءتهم حجة ظاهرة ليؤمنن بها . والواقع أن كفر المعاندين لم يكن ناشئا عن عدم الحجة ، وانما هم بذلك لا تنفعهم حجة ، ولا يؤمنون ببرهان ، وانه مهما سيق اليهم من حجج ، وهيىء لهم من دلائل فانهم لايؤمنون الا اذا سلكوا سنة الله فى ايمان من يؤمن ، فطهروا قلوبهم من الحقد والحسد ، وأقبلوا على النظر البرىء فيما يدعون اليه « ولكن أكثرهم يجهلون » يتمكن الجهل والسفه من قلوبهم فيمنعهم أن يسلكوا طريق الهداية والايمان

وان واجب أهل الحق بالنسبة اليهم أن يعرفوا أن عداوتهم للحق ناشئة من نفوسهم وليست ناشئة من عدم الحجج المقنعة ، فلا يهتموا بشأنهم ، ولا يكترثوا بما يقترحون من حجج وآيات : « وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون »

(*) الايات من ١١١ الى نهاية الاية ١٢٦ من سورة الانعام

واجب الدعاة

وليعلم أهل الحق ان سنة الله جرت مع كل نبى وكل داع ، أن يبث لهم أعداء يقفون أمام دعوتهم ويعملون جهدهم فى صرف الناس عنها ، وما على هؤلاء الدعاة الا أن يصبروا ويصابروا ، ويعصموا أنفسهم وأتباعهم من الاغترار بزخرف قولهم وفاسد وحيهم حتى يأتيهم نصر الله ، وتكون العاقبة للصابرين «وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن» ، ولقد كان فى قدرة الله أن يسلبهم قوة المعارضة ، ولكن لم يشأ ذلك تحقيقا لحكمة الابتلاء ، وتصحيحا لقانون المحاسبة والجزاء « ولو شـاء ربك ما فعلوه » ..

واذن فيجب على دعاة الحق أن يتركوهم وأن يعتصموا بالحق الذى معهم وتشهد بصحته فطرهم وضمائرهم ، كما يشهد بصحته التاريخ الحق لاخوانهم السابقين : « أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين »

فليعتصموا بحقهم ، وليثقوا بسنة الله معهم فى النصر والتأييد ، وبسنته مع أعدائهم فى الهزيمة والخذلان « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » وليحذروا الاستماع اليهم ، والتأثر بما ينفثون من سموم : « وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » ، « وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم ، وان أطعتموهم — فى عقيدة أو عمل — انكم لمشركون »

أعداء الحق

وقد جرت سنة الله أيضـا أن يجعل أعداء الحق فى كل أمة « أكابر مجرميها » أرباب الرئاسة والجاه والسلطان ، وانهم هم الذين يضطربون لصوت الحق ، ويخافون سطوته ، وهم لذلك يعملون جهدهم فى وضع العقبات ، وفى الكيد لأرباب الحق ، ولكنهم فى سـنة الله لا يمكرون الا

بأنفسهم وسيرون حتما ذلنهم وعزة الضعفاء حينما تدور عليهم الدائرة ، وينزل بهم القضاء على أيدى هؤلاء الضعفاء : « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون »

بهذا مضت سنة الله فى الأولين ، وتمضى به فى الآخرين ، وبه يسجل الله الصغار والذل على المبطلين ، الذين يكيدون للحق ويصرفون الناس عن الحق « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » ، أما من يطهر قلبه من دواعى الاجرام ونوازع النفس الخبيثة ، ويستقبل الحق بقلب تقى فانه يدخل فى رحمة الله ، وينعم بفضله وهدايته « وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون »

الربع السابع :

مهتد وضال

(*) يواصل هذا الربع الحديث عما يكون من شأن المهتدين الذين طهرت قلوبهم من الموروثات الفاسدة ، ونظروا فى أدلة الحق ، فانشرحت به صدورهم وسلكوا طريق الله المستقيم ، ومن شأن الضالين ، الذين تحجرت قلوبهم فلم ينفذ اليها شعاع الحق ، وظلوا فى كفرهم يعمهون ، فيذكر بالنسبة للمهتدين : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون »

ويصور بالنسبة للضالين بعض مواقف الحشر والحساب ، التى يتجلى فيها أن سبب ضلالتهم هو فتنة بعضهم ببعض ، واستجابة الاتباع لاغراء المتبوعين . ويتجلى فيها تحسر الاتباع على السير وراء المتبوعين ، والتى تقطع عليهم فيها أعذارهم ، ويذكرون برسل الله وآياته ، فيشهدون على أنفسهم بالكفر ، ويعترفون أن الحياة الدنيا هى التى غرتهم ، وصرفتهم عن الايمان بالرسل ، وعن النظر فى الآيات : « يا معشر الجن قد استكثرتم

(*) الآيات ١٢٧ الى نهاية الآية ١٤٠ من سورة الانعام

من الانس ، وقال أولياؤهم من الانس ربنـــا استمتع بعضنا ببعض » ، « يا معشر الجن والانس . ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا شهدنا على أنفسنا »

شبيه الشيء منجذب اليه

وعندئذ يصدر على الجميع ، ضالين ومضلين : « النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله » . وفيما بين هذا التصوير الآخـذ بالنفوس والذى يعبر تعبيرا قويا عن علاقة الاتباع بالمتبوعين فى الدنيـا والذى يوضح أن ضلال الفريقين انما جاءهم من قبل أنفسهم ، سيرا وراء الهوى والشهوة ، لا من قبل الله بحكم قاهر لا مفر منه

فيما بين هذا التصوير ، تقرر الآيات سنتين من سنن الله فى خلقـه ، تختص احداهما بالضلال والاضلال ، وهى ان النفوس المتشابهة فى عوامل الاعراض عن الحق يميل بعضها بحكم المشاكلة الى بعض ، تلتقى رغباتهم وأهواؤهم ، فتلتقى عقائدهم وخططهم ، فيتعاونون ، ويتناصرون ، ويتبع بعضهم بعضا « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون »

الجزاء بعد الانذار

وتختص السنة الأخرى بشأن الله فى الحساب والجزاء ، وهى انه ليس من شأنه سبحانه أن يعذب الأمم بما يشيع فيها من مظالم ، وينتهك فيها من حق ، قبل أن ينذرهم ويرشدهم ، ويبعث فيهم من يدعوهم الى صراطه المستقيم ، لئلا تكون لهم حجة ، ويقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير » ، « ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون »

سر التكليف والاختيار

ثم تبين الآيات أن هذه السنن التى يعامل الله بها عباده ــ فى الضـلال والهدى ، والانذار والتبشير ، والحساب والجزاء ــ لم تكن ليسـد بها حاجة له سبحانه ، فهو الرب الغنى الذى يحتاج اليه كل من سواه ، وانما

هى من رحمته بعباده ليظهر فيهم المحسن من المسىء ، ويمتاز بها الخبيث من الطيب ، ويحظى كل عامل بنتيجة عمله ، ولو شـاء سبحانه لأذهب العصاة المارقين ، وأتى بقوم يحبهم ويحبونه ، يطيعون ولايعصون ، ولكن قضت حكمته بتنظيم الكون على هذه السنن ، تحقيقا لقاعدة التكليف والاختبار ، واظهارا لفضل العقل الذى فضـل به الانسان على غيره من سائر المخلوقات ..

اذا فسدت العقيدة ساء السلوك

ولما كانت العقائدة الفاسدة يتبعهـا دائما أحكام فاسـدة وتصرفات منحرفة ، أخذت الآيات تبكت الضالين فى عقائدهم على بعض تصرفاتهم التى كانت أثرا من آثار كفرهم بالله ، واعراضهم عن شرائعه وأحكامه ، فذكرت تصرفهم بالتحليل والتحريم فى الحرث والانعام ، تصرفا لم يأذن به الله ، ولم يكن فى طبائع الأشياء ما يسمح به أو يبرره : جعلوا منهـا نصيبا لشركائهم ، ونصيبا لله ، وبعد هذا يأخذون مما جعلوه لله ويضيفونه لما جعلوه للشركاء ، وخصصـوا بعض الانعام والحرث لمن يشـاءون ، وحرموها على من يشاءون .. حرموا ظهور بعض الأنعام ، ومنعوا أن تركب أو يحمل عليها ، وأكلوا ما ذبحوه باسم الأصنام والشركاء ، وحرموا ما ذكر اسم الله عليه ، وهكذا حتى امتد سوء تصرفهم الى أولادهم فتقربوا بقتلهم الى المعبودات

وعبرتنـا فى ذلك : ان التشريعات والتصرفات التى لا تؤسـس على الايمان بالله وشرائعه لابد أن تكون عاقبة أهلها الخسران والدمار، فليعتبر هؤلاء الذين يجعلون لغير الله نصيبا فيما خلق والذين يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل ابتغاء شهوة أو تقليد ، والذين يعملون جهدهم فى افساد نطف النسل الذى به يعمر الكون ، وتظهر به أسرار الله فى خلقه ، وليقرءوا جميعا قوله تعالى :

« قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين »

الربع الثامن

نعم الله دلائل وحدانيته

(*) وفى هذا الربع تعود الآيات فتذكر أدلة التوحيد الماثلة فى نعم الله التى يتقلب فيها عباده ، والتى يسدون بها حاجاتهم ، ويمتعون بلذائذها أنفسهم .. يذكر من ذلك الزروع ، ويذكر الأنعام ، ويلفتهم الى ما فى الزروع والأشجار من ثروة نباتية ينتفعون بأخشابها فى مهامهم ، وبثمارها فى طعامهم ، والى ما فى الانعام من ثروة حيوانية ، لهم فيها دفء ومنافع ومنها يأكلون : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات » . « ومن الأنعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » . كلوا من الأنعام ، كما تأكلون من الزروع والثمار فالكل مما أنعم الله به عليكم ، وأحله لكم ، وان التفريق بين ما أحل الله بتحليل البعض وتحريم البعض ، خروج عن قضية التسوية بين المتماثلات فى الطبيعة والحكم ، وافتراء على الله بالتحليل والتحريم ولا يملك التحليل والتحريم سواه « قل آلذكرين حرم أو الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا »

اربعة اطعمة محرمة

لم يحرم شيئا من هذا ، وما كنتم شهداء اذ حرم . وانما هو افتراء وتضليل « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم » . ان الله لم يحرم شيئا من الزروع ، ولا من الأنعام ، وانما الذى حرم ان يطعم هو الميتة ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير ، والفسق الذى أهل به لغير الله . وقد حصر الله ما حرم من طعام فى هذه الأصناف الأربعة ، وقد جاء ذلك الحصر فى سورتنا بقوله : « قل لا أجد فيما أوحى الىّ محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير ،

(*) الايات ١٤١ الى نهاية الاية ١٥٠ من سورة الانعام

فانه رجس ، أو فسقا أهلّ لغير الله به » وجاء ذلك الحصر مرة أخرى فى سورة النحل بصيغة : « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » . وسورة الأنعام ، وسورة النحل مكيتان ، ثم جاء ذلك الحصر مرة ثالثة فى سورة البقرة على نحو ما جاء فى سورة النحل « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » ثم جاء مرة رابعة فى سورة المائدة : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » وكان ذلك بعد قوله : « أحلت لكم بهيمة الأنعام الا ما يتلى عليكم » . وسورة البقرة ، وسورة المائدة مدنيتان . والمائدة بعد ذلك من أواخر القرآن نزولا . ومن هنا يتبين أن حصر المحرمات من الطعام فى هذه الأربعة ، هو ظاهر القرآن الكريم

شبهتان مردودتان

وتعرض الآيات بعد هذا الى شبهتين ، كان يتذرع بهما القوم فى أصل التحريم ، وفى عدد المحرمات ، فكانوا يقولون : لو كان دين الله حصر التحريم فى هذه الأربعة فكيف حرم على بنى اسرائيل كل حيوان ذى ظفر؟ وحرم عليهم بعض شحوم البقر والغنم ؟.. ويجيب الله عن هـذه الشبهة بأن تحريم ذلك على بنى اسرائيل لم يكن شرعا وانما كان ابتلاء وعقوبة « كل الطعـام كان حلا لبنى اسرائيل » . « ذلك جزينـاهم ببغيهم وانا لصادقون » . وكانوا يقولون فى أصل التحريم والشرك ، وما ورثوا عن الآباء من عقائد وشرائع فاسدة : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » يريدون أن الله رضيه وأمر به ، أو انهم كانوا مجبورين عليه بقهره الذى لايستطيعون التخلص منه ، وتلك شبهة لا تزال عالقة بالنفوس يعتذر بها المفسدون ، ويجادل بها المبطلون ، والله يجيب عنهـا بأن أمثالهم السابقين كذبوا الرسل فأشركوا وحرموا ، واعتذروا بالمشيئة كما يعتذرون ، فعاقبهم الله على شركهم ، ولم يكترث باعتـذارهم : فلو كان حقـا ما قالوا لما عاقبهم « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » ثم طالبهم بما يثبت رضا الله بالشرك والتحريم أو بما يثبت قهرهم

على ما هم عليه : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنـا ان تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون » .. واذ لا علم عندكم فلا تتبعوا أهواءكم واتبعوا ما أنزل الله اليكم : « قل فلله الحجة البالغة » ..

الانسان مختار غير مقهور

كلفكم ووعد وأوعد ، وترككم كما خلقكم ، مختارين غير مقهورين ولا مجبورين ، ليكون للمحسن احسانه ، وللمسيء اساءته ، ولو شـاء لقهركم على الطاعة فلا تقدرون على العصيان ، أو قهركم على العصيان فلا تقدرون على الطاعة ، وعندئذ لا تكونون من النوع الذى أعده للخير والشر ، وهداه النجدين

ثم يستنهض همتهم فى استحضار من يشهد لهم بما يقولون ، ويحذر النبى صلى الله عليه وسلم واتباعه من السير فى طريق شبههم الضالة :

« ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لايؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون »

الربع التاسع :

(*) عرضت سورة الأنعام لكثير من أدلة التوحيد والرسالة والبعث ، ودفعت كثيرا من الشبه التى كان يثيرها خصوم الدعوة عليها وعلى الدعاة ، وبينت فى سبيل تسلية الرسول وصحبه جملة من سنن الله فى الاضلال والهداية ، وفى معارضة الباطل الحق حتى أوفت فى ذلك كله على الغاية ، وأخيرا ختمت بهذا الربع : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا » ... الآيات . فركزت الدعوة فى أمهات الفضائل ، وأسس الخير للفرد والجماعة ، ففى جانب العقائد :

« الا تشركوا به شيئا » ، فله وحده العبادة ، وبه وحده الاستعانة ،

(*) الايات من ١٥١ الى اخر سورة الانعام

ومنه وحده الخوف والرجاء ، وله وحده التحليل والتحريم

وفى جانب العمل :

« وبالوالدين احسانا » . فمنهما نشـأ الانسان وفى أحضانهما تربى ، والاحسان اليهما اعتراف بالنعمة وتقرير للجميل : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق » . فالولد ثمرة الحياة ، وحلقـة فى سلسلة النوع الانسانى ، وفى حكم قتلهم العمل على منعهم حيث لا ضرورة تدعو اليه ، واهمال تربيتهم ، أو تنشئتهم على بغض بلادهم ودينهم ..

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق » . فالاعتداء عليها هدم لعمارة بناها الله ، واعتداء على خلافة أرادها الله . نعم . أهدرت عصمة النفس البشرية اذا اعتدت على أخت لها بريئة فقتلتها ، أو على نظام الله العام فحاربته وأفسدته ، أو على جماعة المسلمين فناصبتها العداء

« ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسـط » . فالأموال صنو النفس ، وعنصر الحياة . والاعتداء عليها اعتداء على الحياة ، وقد خص بالذكر « الأكل » عن طريق استضعاف المالك كاليتيم ، وعن طريق الاختلاس فى المعاملات التى لابد للناس منها ، وهو طريق البيع والشراء : « ويل للمطففين .. »

وفى جانب القول :

« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا » . العدل ، والوفاء بالعهد قطبا النظام ، فلا عمران مع الظلم ، ولا نظام مع المحسوبية ، ولا ثقة مع نقض العهود . واهمال شرع الله نقض لعهد الايمان ، والاخلال بالالتزامات نقض لعهد الانسان . وتبديل حكم الله نقض لعهـد الله ولا حياة لأمة عرفت بنقض العهود ..

« وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » جمع الكلمة وارتباط القلوب حول تركيز شرع الله اعتصام بحبل الله ، وسبيل للخير والفلاح . والتفرق غول الأمم ، ومورد التهلكة

وصايا الهية

تلك وصايا الله ، بعث بها كل رسول ، وأنزل بها كل كتاب .. فهى شرعه الدائم ، وصراطه المستقيم ، جاء بها كتاب موسى ، وجاء بها القرآن الكريم ، ليؤكد اللاحق السابق : « ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن » ، « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » .
والاعراض عنه تكذيب بآيات الله وسبيل لغضب الله ، والتفرق فيه تضييع لأمانة الله : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ، انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون »

ثم تختم السورة بأمرين عظيمين ، يرجع أحدهما الى تقرير الدعوة فى نفسه صلى الله عليه وسلم تقريرا يحس به وجدانه ، ويتجلى به ظاهره ، ويمتلىء قلبه ببرهانه المادى والتاريخى : « قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة ابراهيم » ، « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » ، « قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء »

وتقرير الدعوة على هذا الوجه له من الأثر فى قوة الداعى ، وفى تبديد شبه المعارضين ما يركز للحق سلطانه ، ويرمى بجبهة المعارضة الى مكان سحيق ..

أما الخاتمة الثانية والأخيرة فهى ارشاد الانسان الى مكانته التى أعدها الله له فى هذه الحياة ، تلك المكانة التى تمثلها خلافته فى الأرض ، وان الله جعل عمارة الكون تحت يده وبعمله ، تتعاقب عليه أجياله ، ويقوم اللاحق فى ذلك مقام السابق ، وان الله سبحانه قد فاوت فى المواهب ليظهر من يحسن فى الخلافة فيكون له من الله مغفرة ورحمة ، ومن يسىء فيكون له من الله شديد العقاب : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم »

سورة الأعراف

الربع الأول :

مهمة التنزيل المكى

(*) سورة الأعراف أول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم ، وأول سورة عرضت للتفصيل فى قصص الأنبياء ، وهى أطول سورة فى المكى ومهمتها هى مهمة المكى : تقرير التوحيد .. ربوبية ، وألوهية ، وتشريعا ، وتقرير البعث والجزاء ، وتقرير الوحى والرسالة . وتلك هى أصول الدعوة الدينية التى كانت لأجلها جميع الرسالات الالهية ..

واجب الداعى وحقه

نوهت بشأن الكتاب ، وأرشدت الى الغاية التى لأجلها أنزل ، والى ما يجب على الرسول بصفته الداعى أن يطرده عن قلبه حتى يقوى فى الدعوة ويقوم بالمهمة التى ألقيت على كاهله : « كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » ، فعلى دعاة الخير أن يتسلحوا بالهدوء والاطمئنان . وعلى الناس أن يوفروا عليهم راحة الضمير، وألا يضعوا أمامهم العقبات التى تحرج الصدور ، وتقبض النفوس ، وقد أجملت السورة دعوتها الى هذه الأصول فى آية واحـــدة ، تحمل الأمر بناحية الايجاب ، وتحمل النهى من ناحية السلب ، فطلبت اتباع ما أنزل من عقائد وأخلاق وأعمال ، ونهت عن اتخاذ أولياء من دون الله ، يرجع اليهم فى التحليل والتحريم ، أو يقصدون بالعبادة والتقديس ، أو يعتمد

(*) انظر اول الاعراف الى نهاية الاية ٣٠

عليهم فى الشفاعة والمغفرة : « اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء »

ثم سلكت سبيل الانذار : فأنذرت بما أصاب الأمم السابقة حينما كذبت رسلها ، وعتت عن أمر ربها : « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون » . وخوفت بما أعد للمكذبين يوم أن يسألوا عما أنزل اليهم ، ويوم أن يسأل عنهم المرسلون ، يوم الوزن الحق ، يوم يثقل الميزان أو يخف : « فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين » ، « والوزن يومئذ الحق » ثم سلكت سبيل التذكير بالنعم ، فلفتت الأنظار الى نعمة تمكين الناس فى الأرض ، واتخاذهم اياها وطنا مزودا بضروب المنافع الشتى ، يستقلون فيه بالحكم ، والانتفاع بموارده الظاهرة والباطنة لا يشاركهم فيه أحد ، ولا يخرجهم منها انسان « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش »

ولفتت الأنظار الى نعمة خلقهم من أب واحد ، يجمعهم به رحم واحد ، وبه كانوا خلفاء فى الأرض وعمارة الكون ، وفضلهم بذلك على كثير من خلقه . وهنا ذكرت السورة خلق آدم وقصتـه مع الملائكة ، من أمرهم بالسجود له ، اظهارا لفضله ، وتنويها بما يكون له من شأن ، بعد أن قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمـدك ونقدس لك »

تحذير من ابليس وجنده

ثم ذكرت موقف ابليس من آدم وكيف أبى واستكبر ، وتعالى وتعاظم وقال : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » . ومن هنا ظهر للانسان عدوه المبين ، الذى ابتلاه الله به فى هذه الحياة ، والذى يجب عليه ــ ليسلم من شره ويسعد ، ويحصل على رضا مولاه ، ويحقق حكمة الله فى خلقه ــ أن يتخذه عدوا ، يتحسس نواياه ، ويتعرف وسوسته

ويكافحه بكل ما أوتى من قوة ، يعرف انه قد نصب له الشباك وقعد له بالمرصاد ، ورسم خطته فى اغوائه والكيد له : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » ..

بصرنا الله بهذه العداوة ، وحذرنا منها « اخرج منها مذموما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » . ثم يذكرنا بما كان من أثر عداوته لآدم أبى البشر : كان آدم وزوجه فى رغد من العيش فابتلاهما الله بتكليف خاص ، فوسوس لهما الشيطان ليظهر ضعفهما ، فينحرفا عن التكليف ، فيقعا فى شر المخالفة ، فيكون لهما من الله جزاء المخالفين « فوسوس لهما الشيطان » . « وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور » ، ووقعا فى المخالفة ، ثم تنبها الى كيد الشيطان ، وقالا : « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ».

وهكذا يجب أن يربط أولاد آدم نسبهم بآدم ، فيعرفوا — كما عرف — كيد الشيطان ، ويطهروا أنفسهم — كما طهر — من وسوسته واغوائه ، فقد خلقهم الله فى الأرض ، وابتلاهم بالشهوات ، وتعارض الرغبات ، وقام الشيطان بينهم ، يضل ، ويكيد ، ويفرق ، ويغرى ، ونظم حياته على قوى الافساد ، فليحذروه ، وليتقوا شره ، وليعتصموا بدعوة الله الواقية ، لعلهم يرحمون « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ، ومنها تخرجون » ..

وتخلص الآيات بعد ذلك الى نداءات أربعة تتجه بها الى الناس بوصف البنوة لآدم تذكرهم بنعم الله عليهم ، وتحذرهم فتنة الشيطان ، وترسم لهم طريق الخير والفلاح فى الدنيا والآخرة

الربع الثانى :

الانسان بين الخير والشر

(*) قص الله علينا نبأ آدم مع ابليس ، وكان مغزاه ان الانسان له جانب خير يتلقى به أمر ربه ويمتثله وينفذه ، فيصـل الى سـعادته والى رضاه ، وله جانب شر ، به يستجيب لوسوسة الشيطان واغوائه ، فيبعد بذلك عن سعادته ، ويصيبه غضب الله . وأولاد آدم من آدم ، تكوينهم من تكوينه واستعدادهم من استعداده فلهم كأبيهم جانب خير يقودهم الى اتباع أوامر الله ، وجانب شر يوقعهم فى المخالفة والعصيان ، وابليس الذى نشأ على عداوتهم يغريهم ويوسوس لهم كما أغرى أباهم ووسوس له ، ويحاول أن يكشف لهم من عورات وسـوءات ، كما كشف لأبيهم من عورات وسوءات

لهذا وجه الله الى أبناء آدم ، بعد أن بين لهم عداوة ابليس لأبيهم : أربعة نداءات متتالية بوصف البنوة لآدم « يابنى آدم » يرشدهم فيها الى نعمته عليهم ويحذرهم بها من عدوهم ، ويرشدهم الى أن هدايتـه لهم والتمسك بها هى وحدها سبيل عصمتهم من الوقوع فى كيده ، ويذكرهم بأن الحرمان من النعيم ، الذى أصاب والديهم ، انما كان بنسيانهما نعمة الله ، وباستجابتهما للشيطان ، واغفالهما هداية الله

- امتن عليهم بأن هيأ لهم سبيل الحصول على الملبس الذى به يسترون عورتهم ويريشون به أنفسهم فى مناسبات التجمل ، ولفت أنظارهم الى أن تقوى الله فى الانتفاع بنعمة اللباس على الذى رسم الله هو أسـاس الرضا ، وأساس الشكر « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسـا يوارى سوآتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير »

وفى تحذيرهم من فتنة الشيطان التى فتن بها والديهم من قبل ، ووقعا بها فى المخالفة والعصيان : « يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج

(*) الآيات ٣١ الى نهاية الآية ٤٦ من سورة الاعراف

أبويكم من الجنة » . وفى سبيل هذا يرشدهم الى أن عدم الايمان بالله والاعراض عن هديه هو الطريق الوحيد الذى به يتسلط الشيطان عليهم ، وينفذ منه الى قلوبهم : « انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون » ، فيأخذون بهم الى طريق الشر ، ويخيلون لهم ان ما يفعلون من شر وفاحشة انما هو باذن الله وأمره « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » . ثم يجىء النداء الثالث ، فيكشف عن المعنى الانسانى فى اللباس ، وانه من الزينة التى تحفظ على الانسان مكانته ، ويأمرهم باتخاذها فى المساجد وما يماثلها من المجتمعات ، ويرشدهم الى الاعتدال فيها ويضم اليها الأكل والشرب ، ويقول : « ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » ..

وكما يحذر الاسراف ، يحذر الحرمان ، وينكر على الاشحاء أو المتنطعين حرمان أنفسهم من الزينة والطيبات من الرزق ، ويرشدهم الى أن الجدير بالتحريم وبتطهير النفس منه « الفواحش » التى تأباها الانسانية ، و « البغى » فى الأرض . و « الشرك » الذى لا تقوم له حجة ، ولا يوحى بفضيلة ، والقول على الله بغير علم ، وهو أصل الضلال ، والقضاء على شرائع الله وأحكامه . وترشدهم الى أن لكل أمة أجلا ، تحاسب بعده على ما اقترفت من المظالم والمآثم ، وينزل بها الجزاء الذى تستحق ، وانها لا تحظى بالنعيم بعد هذا الأجل الا اذا آمنت بالله وهداه ، واتقت حرماته ، وأصلحت ما أفسدت أو أفسد الناس : « يابنى آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

حرمان ابدى

ثم تصور لنا الآيات بعد مشهدا من المشاهد الواقعية يوم الجزاء للمكذبين حتى يتضح الحق ، ويشهدون على أنفسهم بالكفر والتكذيب ، وان أربابهم ــ الذين كانوا يدعون من دون الله ، وشفعاءهم الذين كانوا يعتمدون عليهم فى النجاة من عذاب الله ــ قد ضلوا عنهم وتبرءوا منهم ،

وفى هذا المشهد يتخاصم التابعون والمتبوعون ، ويلقى كل منهم بالتبعة على صاحبه ، ويسجل الله على الجميع تابعين ومتبوعين ضالين ومضلين الحرمان الأبدى ، ويوصد فى وجوههم أبواب الرحمة ، ويصف تقلبهم فى طبقـات الجحيم المسـتعرة : « كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون »

« لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط »

« لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين »

نعيم دائم

وبجانب مشهد الظالمين المكذبين ، ترسم الآيات مشهد المصدقين المؤمنين صفاء للنفوس من الغل والحقد ، وحمدا على هـداية الله ، وشكرا على نعمته : « ونزعنا ما فى صـدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار » ، « وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » ، « لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » ..

الربع الثالث :

محادثة بين فرق ثلاث

(*) يتحدث هذا الربع عن مشهد آخر ، تبدو فيه ألوان جديدة من صور التحية والتكريم للمؤمنين ، ومن صور التبكيت والحسرة للمكذبين، وتجرى فى هـذا المشهد محادثة بين فرق ثلاث : فرقة المؤمنين أصحاب الجنة ، أهل الهدى والايمان . وفرقة الكافرين ، أصحاب النار ، أهل

(*) الآيات ٤٧ الى نهاية الآية ٦٤ من سورة الاعراف

الضلال والبهتان . وفرقة ثالثة لم يتحدث عنها القرآن الا فى هذه السورة ، وفى هذا الربع وباسمها سميت السورة ، وهى الفرقة التى سميت بأصحاب الأعراف « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النـــار » . « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » . « ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم » . « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة »

مشهد أخروى ، سشهده العالم يوم البعث والجزاء دون تصوير ولا تخييل ، تبين تلك الآيات ما سيكون فيه من شماتة أهل الحق ، أصحاب الجنة ، بالمبطلين أصحاب النار « أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » فلا يستطيعون الا أن يقولوا : « نعم » فينطلق صوت علوى ، يسجل عليهم اللعنة والطرد والحرمان ، ومشيرا الى أن ظلمهم للحق ولأنفسهم هو الذى حملهم على الصد عن سبيل الله وعلى السلوك المنحرف ، وعلى الكفر بما يرون الآن . وتبين أن بين الجنة والنار حجابا ، وان على الأعراف رجالا ، يعرفون كلا من أهل الجنة والنـــار بسيماهم ، فينادون أهل الجنة بجميل التحية والتكريم : « أن ســلام عليكم » وينادون الآخرين بما يضاعف حسرتهم ، ويبين لهم ما كانوا فيه من غرور : « ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة » ؟.. ثم يلتفتون الى أهل الايمان ويقولون : « أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون »

ويستقر أهل الكفر والضلال فى الجحيم ، وتشوى النار وجوههم ، وتجفف أكبادهم ، فيفزعون الى نداء أهل الجنة : « أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » فيقولون لهم : « ان الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا » . وهنا يقطع الله اعذارهم بأنهم كانوا فى حل يوم أن جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، فماذا يقولون اليوم وقد تركوه من قبل ؟.. « قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون »

تلك شماتة المؤمنين بالكافرين ، وتحسر الكافرين على حرمانهم وسوء مصيرهم وبشرى أصحاب الأعراف وتحيتهم للمؤمنين ، وتبكيتهم للمنكرين الضالين ..

الحجاب والاعراف

وقد تكلم العلماء كثيرا فى الحجاب الذى بين الجنة والنار ، كما تكلموا فى معنى الأعراف وفى رجاله . والذى يجب علينا أن نؤمن به أن هناك حجابا بين الجنة والنار ، قد يكون ماديا ، وقد يكون معنويا ، والذى يعلم حقيقته هو الله وحده . والقصد ان هناك ما يمنع وصول أهل الجنة الى النار ، أو وصول حرارة النار اليهم ، ويمنع وصول أهل النار الى الجنة ، أو وصول نعيمها اليهم . وان هذا الحجاب لا يمنع من وصول الأصوات عن طريق المناداة .. ولعل ما نشاهده ، وما نحن فيه الآن من سماع الأصوات دون رؤية ومشاهدة ، أو الرؤية دون اتصال أو قرب ، أوضح شاهد على أن ما تصوره الآيات حقيقة تقع وتأخذ حظها من الوجود ، وليست تخييلا ولا تمثيلا

أما الأعراف ، فأظهر ما نراه فى معناها ، الأماكن العالية الممتازة . يكون عليها رجال لهم من المنزلة الرفيعة عند الله ماجعلوا به مشرفين على هؤلاء وهؤلاء ، وهم عدول الأمم ، والشهداء على الناس ، وقد جاء التصريح بهم فى مثل قوله تعالى : « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » . « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون »

عظات

وبعد هذا تعود الآيات فتلفت الأنظار الى بعض الأدلة الكونية وتوجه النفوس الى دعوة الله تضرعا وخيفة ، وتحذر الافساد فى الأرض ، وتذكر مثلا للنفوس الطيبة التى تنفعل بهذه الأدلة فتؤمن وتصدق وترد الأمر كله الى مصدره ، خالق السموات والأرض ، والذى له الخلق والأمر .

ومثلا آخر ــ يقابله ــ للقلوب الملتوية التى تصرفها الشهوة عن الحق ، ويتحكم فيها الكبر ، فيمنعها من قبوله : « والبلد الطيب يخرج نبــاته باذن ربه والذى خبث لايخرج الا نكدا » . ثم تعود الآيات فتذكر تفصيلا لما أجملته السورة فى أولها من أحوال الأمم المكذبة ، فتذكر جمــلة من الأمم التى كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها ، وتبدأ بالرسول الأول الأب الثانى للبشر « نوح عليه السلام » ، فتبين أن دعوته كانت هى دعوة محمد عليه الصلاة والسلام : « أعبدوا الله ما لكم من اله غيره » ، وان الذين ناصبوه العداء وأخذ يسالمهم ويناصحهم ، هم المستكبرون من قومه . كما كان شأن المكذبين لمحمد عليه السلام . وان نوحا لما صبر وصابر واستمر قومه على العناد والمكابرة كانت العاقبة للجميع : « فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين » . وهكذا سنتنا مع الآخرين المكذبين ..

سورة يونس

الربع الثالث :

(*) عنيت سورة يونس بما عنيت به السور المكية ، من تقرير التوحيد ، والرسالة والبعث ،ودفعت جملة من الشبه التى كان القوم يثيرونها حول رسالة الرسول ، وحول القرآن . ووصفت فى كل ذلك ماشاءت أن تصف ، وفى هذا السياق ضربت للقوم مثل الحياة الدنيا التى خدعتهم زخارفها ، وحالت بينهم وبين استجابة الدعوة ، وهى دعوة الله التى يدعو بها الى دار السلام ، والأمن من الشقاء والحيرة والارتباك ، ثم تصف حالة المحسنين الذين استمعوا للدعوة وما يحصلون عليه من الكرامة الخالدة ، والمكانة الرفيعة التى لا يلحقهم فيها نكد ولا ذلة : « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » وتصف بازائها حالة المسيئين الذين كسبوا السيئات ، وما يصيبهم فى دار الخزى من المذلة والمهانة : « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

ثم تصف مشهدا من المواقف التى يصير اليها المكذبون يوم الحشر الذى ينكرونه ويستهزءون بذكراه ، ذلكم المشهد الذى يفرق فيه بينهم وبين شركائهم فتذهب آمالهم فيهم ، وتتقطع ما بينهم من صلات ، ويتبرأ منهم الشركاء : « ما كنتم ايانا تعبدون » ، « ان كنا عن عبادتكم لغافلين » ، وفى هذا الموقف ينكشف الغطاء ، وتزول الأهواء ، وترى كل نفس ما قدمت من عمل ، ليس لها شفيع من دونه : « وردوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون »

(*) الآيات من ٢٥ الى آخر الآية ٥٢ من سورة يونس

تحكيم الفطرة

ثم تنتقل الآيات الى تحكيم الفطرة البشرية فيما تشهد به من توحيد الربوبية فى الخلق والتدبير والرزق ، والاحياء والاماتة ، وتسجل عليهم الجواب المتين الذى لا تعرف الفطرة سواه ، توحيد الالوهية القاضى بعبادة الله وحده : « فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال »

ثم تنتقل بهم الى تحكيم الفطرة أيضا فيما وراء الخلق المادى ، من أنواع الهداية المودعة فى نفوس البشرية ، وهى هداية العقل ، وهداية الوجدان : « هل من شركائكم من يهدى الى الحق ، قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع ، أم من لا يهدى الا أن يهدى »

حول القرآن

ثم تنتقل الآيات بعد الحجاج العقلى والوجدانى الى موقف القوم بالنسبة للقرآن ، وقد كانوا ينكرون انه من عند الله ، فبينت لهم أولا ان القرآن بطبيعة ما اشتمل عليه ، من تقرير الحقائق ، واقامة الأدلة الكونية وشرح النفسيات الانسانية ، والسنن الاجتماعية ، والمغيبات الماضية والمستقبلة ، والأحكام التى ترشد الى السعادة ، يأبى بكل ذلك أن يكون من عند محمد ، أو غيره ممن لاسبيل الى معرفتهم بما احتوى عليه القرآن ، فهو حق من عند الله لا ريب فيه ، وهو تصديق لما بين يديه من كتب الأولين : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله »

ثم أخذت بهم الآيات ثانيا ، على افتراض انه افتراء من عند محمد ، الى التحدى ، ودعتهم الى الاتيان بمثله ، أو بسورة مثله ، فهم ومحمد فى البيئة واللغة سواء : عربى وعرب ، وبليغ وبلغاء

ثم تكشف لهم عن حقيقة أمرهم ، وهى انهم قوم مجترئون على ما لم يحيطوا بعلمه ، ولم تنفذ عقولهم الى أسراره وحكمه ، وسيتضح لهم عاقبة ظلمهم فى أنفسهم ، كما اتضحت لاخوانهم المكذبين من قبل : «فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » . ثم ترشد الآيات الى أن جهلهم بحقيقة ما

اشتمل عليه الكتاب ، أو عدم ايمانهم به ، لم يكن ناشئا من خفاء الكتاب أو اضطرابه . وانما هو ناشىء عن صلفهم وتكبرهم عن النظر فى الحق ، وانه لا ذنب لأحد سوى أنفسهم فى تكذيبهم لتلك الحقيقة الواضحة : « أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » ، « أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » . فما عليك أيها الرسول سوى أن تدعوهم بحجتك وأن تنذرهم يوم الحشر ، يوم ينكشف لهم الغطاء ، وينزل بهم العذاب ، وقد تخلف عنهم كل ما أغراهم من زينة الدنيا وشهواتها ولم ينتفعوا بشىء منها ، أو كأنهم لم يلبثوا فيها الا ساعة من النهار ، وهنا تسجل الآيات عليهم الخسران الأبدى بما فرطوا فى جنب الله : « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين » ، « ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ، هل تجزون الا بما كنتم تكسبون »

الربع الرابع :

انذار وامهال

(*) من سنة الله مع المكذبين أن ينذرهم ، ثم لايأخذهم من قريب ، بل يمهلهم فترة يستطيعون فيها مراجعة أنفسهم ، فاذا ما انقادوا وآمنوا ضمهم اليه ، وغفر لهم ما أسلفوا من عناد . ومن الناس من يطغيهم الامهال وينسيهم تلك السنة ، فيتخيلون انهم فى الانكار على حق ، ويندفعون الى السخرية والاستهزاء بما به ينذرون : « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين» أحق ما تقول ؟ ! .. وهكذا يأخذ بهم الصلف الى استعجال العذاب ، أو السخرية به !..

أمام هذا الطغيان يأمر الله نبيه أن يقرر لهم أن العذاب حقيقة واقعة ، وانه نازل بهم لا محالة ، وانهم غير قادرين على التخلص منه : « وما أنتم بمعجزين » . وتأكيدا لذلك فى نفوسهم تصور الآيات لهم ما تعتلج به

(*) تقدمة الآيات من ٥٣ الى آخر الآية ٧٠ من سورة يونس

صدورهم حينما يطوقهم العذاب من محاولة الافتداء ، وشدة الندامة على مواقفهم السالفة التى أوقعتهم فيما هم فيه . ثم توقظ ضمائرهم نحو ما استقر فى الفطرة البشرية من أن صاحب هذا الوعيد ، وصاحب هـذه الدعوة ، هو الله الذى له ملك السموات والأرض ، والذى له الاحيـاء والاماتة ، والذى اليه المرجع والمآب : « هو يحيى ويميت واليه ترجعون». ثم تأخذ الآيات فى بيان فضل الدعوة على الناس ، وانها موعظة زاجرة لهم عن القبائح ، وشفاء مطهر لقلوبهم من الأوهام والخرافات ، وارشـاد موصل للحق والنافع ، ورحمة تقى الانسـان العذاب والخسران . وهو استدلال على صحة الرسالة بنفس تعاليمها ، ثم تؤكد لهم ان هذه المزايا خير مما يجمعون من زخارف الدنيا الفانية التى ليس وراءها الا الخسران المبين ..

ثم تبكتهم فى اثر من آثار كفرهم ، وهو اغتصاب حق الله فى التحليـل والتحريم ، وتسجل عليهم الافتراء به على الله : « قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة» . أيظنون ان الله يجاملهم ولا يجازيهم ؟.. « ان الله لذو فضل على النـاس ولكن أكثرهم لايشكرون »

ثم تقرر الآيات احاطة الله بكل ما يكون من شأن الانسان ، وبكل ما أودع فى كونه الذى خلقه « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين » . وانه بهذا العلم المحيط يقرر الجزاء العادل ، فالمكذب له من جزاء التكذيب ما توعد به المكذبين ، والمؤمن له من جزاء الايمان ما وعد به المؤمنين : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون » ، لهم فى الدنيا ما يضىء وجوههم ، ويركز سلطانهم من عزة وقوة وجاه ، ولهم فى الحياة الآخرة ما يضىء وجوههم من علو الدرجات وزيادة الفضل والعطاء

خرافة الشركاء

واذا كان هذا شأن الله مع المكذبين والمؤمنين ، وكان لا تبديل لكلماته ، فليطمئن دعاة الخير ولا يكن فى صـدورهم حرج مما يذيع المكذبون وليثقوا بنصر الله الغالب على أمره ، الذى له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وليعلموا أن ما يعبـد هؤلاء المكذبون من دون الله ، ويسمونهم شركاء ، ليسوا فى واقع أمرهم شركاء ، وانما هم ضعفة عجزة ، لا يدفعون عن أنفسهم شيئا ، « والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » . وانما خيل لهم الهوى والشيطان أنهم شركاء ، فضلوا « وان هم الا يخرصون» . ان الله الذى جعلوا له هؤلاء الشركاء من دونه هو الذى جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليبتغوا من فضله . وقد خرجوا بفساد تصورهم عن مقتضى الفطر ، ومقتضى الآيات ، وراحوا يكفرون بالله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ويقولون فى شأنه ، ما ليس لهم به علم : « قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع فى الدنيا ، ثم الينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون »

الربع الخامس :

(*) تضمنت سورة يونس كثيرا من أنواع الحجج العقلية ، ودفعت كثيرا من الشبه التى كان يثيرها المعاندون حول التوحيد والبعث والرسالة وكانت تذكر فى الأثناء بما أصاب الأمم السابقة حينما وقفت من رسلها موقف المكذبين لمحمد عليه السلام : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا » ، « كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين» ، «ولكل أمة رسول ، فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون»

(*) الآيات من ٧١ الى نهاية الآية ٨٩ من سورة يونس

تسلية وعبرة

ثم جاءت هذه الآيات : « واتل عليهم نبأ نوح » تفصل من هذه النذر الاجمالية قصتين ، لهما كثير من الشبه بقصة محمد مع قومه : قصة نوح عليه السلام ، وقصة موسى وهارون . وقصرت الحديث فى قصة نوح على ما دعت اليه حالة الرسول مع قومه وقت نزول هذه السورة ، حينما فقد المدافع عنه فيما بينهم ، وهو عمه أبو طالب ، وفقد النصير فى البيت ، بموت زوجه خديجة ، واشتد القوم فى ايذائه والكيد له ، فأخذت الآيات فى تسليته صلى الله عليه وسلم بموقف نوح من قومه ، وثباته على دعوته ، معتمدا فى ذلك على الله وحده ، وأرشدته الى أن طول الأمد على نوح ، وشدة اعراض القوم عنه ، لم يضعف من قوته ، بل تحداهم ، وطلب اليهم أن يجمعوا له كل ما يستطيعون جمعه من قوى الكيد والشر ، وأن يتحروا فى أمرهم ، ويزيلوا عنه كل شبهة تعترضهم فى سبيل الايقاع به والقضاء عليه ، ثم يتجهوا له بكل ما هيئوا ورتبوا ، دون امهال أو تردد ، وسوف يرون انه لا يرفع لهم رأسا ، ولا يعبأ لهم بجمع ، وكيف يهتز بجمعهم وهو لم يطلب بدعوته اياهم جاها ولا مالا ، وانما يطلب بدعوته تنفيذ أمر ربه ، الذى وكل أمره اليه ، واعتمد فى السراء والضراء عليه : « يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت »

فهذا يا محمد ، موقف أخيك نوح ، تمسك به وان طال عليك الأمد ، واشتدت شكيمة الأعداء ، وثق بأن عاقبتك عاقبته ، وعاقبة المكذبين لك هى عاقبة المكذبين له ، وتلك سنتنا ولن تجد لسنتنا تبديلا ، فليتحصن أرباب الدعوات الصالحة بايمانهم وتوكلهم على الله ، وسينظر الله اليهم ، وينزل بأعدائهم ما جرت سنته على انزاله بأعداء الحق فى كل زمان ومكان . وهكذا فعل بقوم نوح ، وفعل بنوح ، « فكذبوه فنجّيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين »

أما قصة موسى وأخيه ، فقد تحدثت الآيات فيها عن مراحل الدعوة من

مبدئها الى منتهاها : تحدثت عن العوامل التى استكبر بها فرعون وملؤه عن قبـــول الدعوة ، وردتها الى أمرين : التمسك بالموروثات الفاســـدة « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا » . واعتقاد أن دعوته تسلبهم كبرياء الملك والعظمـــة ، وتجعلها لموسى وأخيـــه « وتكون لكما الكبرياء فى الأرض » وأخذوا بهذا ينفرون الناس من الدعوة ، ويقولون : « ان هذا لسحر مبين » ..

الباطل هزيل

ثم تحدثت عما جرت به سنة المكذبين من أساليب المقاومة الهزيلة التى توقع فى روع العامة ان المعارضين على حق فى المعارضـــة والتكذيب ، ولكن الباطل لا صبر له على البقاء أمام الحق ، وسرعان ما تتزلزل قوائمه ، ويقع صريعا فى ميـــدان التحدى « ويحق الله الحق بكلمـــاته ولو كره المجرمون » ..

وقد كان من المنتظر بعد هذا أن يقبل الناس على الايمان ، ولكن الجبروت يتخذه صاحبه سلاحا فى يده ، يرد به الناس عن تلبية الحق ، وبهذا يحجم كثير عن الايمان ، ولا يقوم عليه الا أرباب النفوس القوية ، التى تبدد قوة ايمانهم غشاوة الخوف عن قلوبهم ، « على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين »

ثم يرشد الله موسى وأخاه الى وسيلة تشد من أزرهم ، وتوقع الرعب فى قلوب أعدائهم ، وهى أن يتقاربوا ويجعلوا بيوتهم متقـــابلة ، سبيلا للتكتل ، وأن يتجهوا الى الله بالدعاء واقامة الصلاة ، فتسمو أرواحهم ويشرق عليها نور الحق

ثم يتجه موسى الى ربه : « ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم »

ينطلق لسان موسى بدعوة الاخلاص والغيرة على الحق ، فتخترق حجب

السماء ، ويسمع موسى من ربه : « قد أجيبت دعوتكما ، فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لايعلمون » وهكذا تصل القلوب المؤمنة الى نصر الله وتأييده ..

الربع السادس :

النظر فى العواقب

لو تمثل للسارق وقت سرقته قطع يده أو للزانى وقت زناه ، حرمانه من الرأفة . أو تمثل للذين يحاربون الله ورســوله ويسعون فى الأرض فسادا قتلهم أو نفيهم من الأرض ، لما أقدم سارق على سرقة ، ولا مجرم على هتك عرض ، ولا مفسد على الافساد . وتلك طبيعة بشرية تتجلى فى المجرمين حينما يأخذهم العذاب ، وينزل بهم النكال .. وهكذا قصَّ الله علينا المرحلة الأخيرة من شأن موسى وفرعون فى تأييــد الحق ونصرته ، وازهاق الباطل والقضاء على عناصره

ايمان بعد فوات الاوان

يقتحم فرعون وجنوده البحر وراء موسى وقومه ، بقصــد الفتك بهم « بغيا وعدوانا » حتى اذا ما أخذ البحر يطبق عليه ، تنبّه وعيه ، وأخذ لسانه يضطرب بكلمة التوحيد « آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل » . ولكن هيهات بعد أن كاد للحق ، وكان فى سعة من الأمر ، والرسول يدعوه ، وآيات الله تتلى عليه وهو لاه بسلطانه ، مغتر بقوته . هيهات وقد نزل القضاء أن لايقبل منه ايمان ، أو يلحقه عفو وغفران «آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين» . ولم يبق سوى أن يجعل منه آية ، يعتبر بها كل من يصل اليه نبؤه ، ويعرف سنة الله فى المفسدين : « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » . وتلك هى الخاتمة

(*) الايات من ٩٠ الى اخر سورة يونس

السيئة التى زلزلت عرش الطغيان . وجدير بها أن تظل ذكراها ماثلة ، يتذكر بها كل جبار عاقبة الجبروت والطغيان « وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون »

بعد هذا تختم السورة بجملتين من الآيات ، فيهما فصل الخطاب من جهة القرآن وحقيته ، ومن جهة ثبات الرسول وقوة ايمانه بدعوته

تأسيس الايمان

أما الجملة الأولى من الآيات ، فقد افترضت وقوع الشك فى القرآن وأرشدت الى ما يقطع دابر هذا الشك ، ليكون الايمان عن حجة وبرهان لا خضوعا لقهر ، ولا استسلاما لتقليد : « فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » وبذلك يخلع الانسان نفسه من طائفة الشاكين المكذبين ، الذين اتضحت لهم حجج الحق ، وران العناد على قلوبهم ، فلم ينتفعوا بالآيات ، وحقت عليهم كلمة الله وكانوا من الخاسرين ..

وقد ضربت الآيات قوم يونس مثلا ، فانهم لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزى ومتعهم بما قدر لهم من نعيم ، فهلا يسلك هؤلاء المكذبون سبيلهم ، فينجوا كما نجوا ، ويمتعوا كما متعوا ؟.. ان التكذيب لم يكن مفروضا عليهم ، وان الايمان لايكون عن قهر والجاء ، ولو أراد الله ذلك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، ولكن خلق الله الانسان وجعله مستعدا للايمان والكفر ، تصحيحا لقاعدة التكليف والجزاء .. وتلك سنته التى ربط فيها بين الأسباب المقدورة ، والمسببات المطلوبة : « وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لايعقلون » ..

واذن الله ، سنته ونظامه فى ايمان من يؤمن وكفر من يكفر ، عن اختيار وتقبل لا عن قهر والجاء ، واذا كان الشأن مبنيا على ما يختار المرء لنفسه ، فسبيله أن ينظر ويفكر ، فمن أقبل بقلبه على المعرفة ، آمن وعرف ، ومن أعرض عن النظر والتدبر فماذا تنفعه الآيات والنذر ، ليس له فى سنتنا

سوى ما قصصنا من أخبار الذين خلوا من قبل « قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ، ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين » ..

ثبات الرسول

ثم أخذت الجملة الثانية من الآيات ، تصور ثبات النبى على دعوته وتؤكد انفعال نفسه بها ، انفعالا يبطل ما يوجه اليه من مساومة أو محاولة ، وفى هذا السياق ، تقرر الآيات الأصول الأولى للدعوة فتذكر تطهير القلب من عبادة غير الله ، واخلاص العبادة له وحده وربط القلب به عن طريقه المستقيم الذى لا عوج فيه ولا انحراف . ثم توصد باب التوجه الى غيره بالعبادة ، وتحذر دعاء غيره أيا كان ، وترشد الى أن غيره أيا كان ، لا ينفع ولا يضر ، والعاقل يجب أن يعرف الحقائق ، وأن يركن اليها ، فكما لا يعبد غير الله لا يدعو غير الله ، ولا يطلب من سواه ، فهو صاحب الأمر ، وصاحب التصريف ، ولم يجعل لأحد من عباده حق التصرف فى خلقه : « وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فلا راد لفضله »

هو هو الدين الحق ، أوحاه رب الناس الى الناس ، واضح المعالم ، بين المسالك فمن اهتدى به فقد أنقذ نفسه ، وحصل سعادته ، ومن ضل واتبع الأهواء فقد دسّ نفسه وعرضها للخزى والنكال

أما أنت يا محمد فسر فى طريقك وثبت قلبك ، « واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين »

سـورة هـود

الربع الأول :

(*) هود عليه السلام ، هو أول رسول الى قوم عاد . وعاد أول أمة من نسل سام بن نوح ، وقد تحدث القرآن كثيرا عن هود فيمن تحدث عنهم من رسل الله الكرام ، وقد ذكر باسمه خمس مرات فى هذه السورة التى سميت به ، وقالوا : انه أول من تكلم باللغة العربية

وسورة هود من السور المكية ، شأنها كسائر المكى : تقرير أصـول الدين ، واقامة الأدلة عليها ، ورد الشبه التى كان يثيرها المعارضون حول الدعوة وصاحبها عليه السلام

عناصر الدعوة الالهية

والمتدبر للسورة يرى أنها .. أولا : قررت عنـاصر الدعوة الالهية ـ وهى : التوحيد ، والرسالة ، والبعث ـ عن طريق الحجج العقلية ، مع الموازنة بين النفوس المستعدة للايمان ، والنفوس النافرة منه . وقـد عرضت ذلك فى أربع وعشرين آية يختم بها الربع الأول منها : « مثـل الفريقين كالأعمى والأصم .. »

ثم أخذت تتحدث عن جملة من الرسل السابقين ، بيانا لوحدة الدعوة الالهية ، وتسلية للرسول عليه السلام ، وانذارا للمكذبين ، واستغرق ذلك الى نهاية الآية التاسعة والتسعين : « واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود » ثم ذكرت فى اثنتى عشرة آية بالوعد والوعيـد ،

(*) الايات من أول السورة الى نهاية الاية ٢٣ من سورة هود

وبسنة الله فى أخذ الظالمين . وختمت بتوجيه الخطاب الى النبى ومن تاب معه فى مثلها اثنتى عشرة آية مرشدة الىمنهاج السعادة والفلاح. وتبتدىء من قوله تعالى : « فاســتقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا » الى نهاية الســورة : « ولله غيب السموات والأرض واليــه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون »

كتاب محكم

هــذا هو موجز ما اشتملت عليه سورة هود ، وقــد بدأت فوصفت الكتاب بالاحكام ، فلا يتطرق اليه خلل . وبالتفصيل فليس فيه خفــاء وبأنه تنزيل الحكيم الذى لا يضل ، الخبير الذى لا تخفى عليه مصلحة . تأخذ فى تقرير الوحدانية والبعث ، وان الله سبحانه هو وحده المرجع فى طلب المغفرة وقبول التوبة ، وان مهمة الرسول ، هى الانذار والتبشير : « ألا تعبدوا الا الله اننى لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسنــا الى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضــل فضله . وان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير . الى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير »

وفى أثناء ذلك تشير الى ما يحصل عليه الانسان من سعادتى الدنيا والآخرة اذا هو لبى الدعوة وآمن بها ، وما يصيبه من خسران وشــقاء اذا هو استمر على كفره واعراضه ، ثم تصــور لنا حالة المعرضــين فى محاولتهم انكار الحق ، وانطوائهم فى ثيابهم على صدورهم مع وضــوح الأدلة فى أنفســهم وفى الآفاق : « وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها » . « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام »

ثم ترشــد الى أن اعراضــهم عن الحق لم يكن لخفائه ، وانما هو لاضطراب نفوسهم وترددها بين يأس الضراء وبطر النعمــاء ، ولو انهم عصموا أنفسهم من ذلك وعرفوا الحق واستقر فى قلوبهم ، لكان لهم من صبر الايمان وصالح الأعمال ما يطمئنهم على حسن العاقبة : « الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » . ولكن القوم

مع هــذا البيان الواضح ما كانوا يتركون احراج الرســول باقتراح ما لا يدخل تحت قدرته من الآيات ، فأخذت الآيات فى تسليته ، وبيان ان فى القرآن الغناء لمن يريد أن يؤمن ، وليس على الرســول الا أن يقوم بمهمته ، وهى التبليغ والانذار ، وان تكذيبهم اياه لم يكن لطلب حجة هم فى حاجة اليها . وانما هى الدنيا ، ملكت عليهم قلوبهم ، وصرفتهم عن النظر فى حجة الله التى أنزلها بعلمه ، وسيرون ما ينزل بهم من جــزاء : « أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . ثم تزيده تثبيتا على حقية الدعوة بأنها دعوة يؤمن بها من طهر قلبــه واتجه اليها ، والى نفسه فاتخذ منهما البرهان على صدقها ، ثم رجع الى تاريخ البشرية وعرف انها رسالة الله الى خلقــه : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة أولئك يؤمنون به » . وما يكفر به الا الذين حرموا من ادراك الوجدان وبرهان العقل ، وعميت عليهم أنباء الأولين : « فلا تك فى مرية منه انه الحق من ربك »

ثم تعود الآيات فتصف المكذبين بجملة من الأوصاف وترشد الى سوء مصيرهم ، وتسجل مضاعفة عذابهم وحرمانهم من النصير المدافع . ثم تختم عليهم بقوله تعالى : « أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » . ومن شــدة التنكيل بهم تضع أمام أعينهم عاقبة المؤمنين : « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » . ثم تضرب المثل للفريقين بما يعرفون به مقدار التفاوت بينهم : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا ، أفلا تذكرون » .

الربع الثانى :

(*) هذا هو الفصل الثانى من سورة هود ، ومن سنة القرآن أن يتبع تقرير الدعوة بما يدل على انها بأصولها وأدلتها ونتائجها فى الدنيــا

(*) الايات من ٤١ الى نهاية الاية ٦٠ من سورة هود

والآخرة ، هى دعوة الألوهية الوحيدة ، التى بعث الله بها جميع رسله من مبدأ الخليقة الى مرحلتها الأخيرة ، مرحلة الاكمال والاتمام ، وهى مرحلة محمد عليه السلام . وان محمدا لم يكن بدعا فيها ، كما انه لم يكن بدعا فى المقابلة بالتكذيب من قومه ، وانما شأنه فى الدعوة وفى اعراض قومه عنه ، شأن اخوانه السابقين مع أممهم ، وسيكون شأنه ، وشأن قومه فى العاقبة شأنهم وشأن أقوامهم : « فهل ينظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ، ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين »

وفى هذا السبيل ذكرت السورة نوحا وقومه وهودا وقومه ، وشعيبا وقومه ، وموسى وفرعونه . وفى كل قصة من هذه القصص عبرة أو عبر ، جدير بدعاة الحق فى كل زمان ومكان أن يملأوا بها قلوبهم ، فيطمئنوا الى نصر الله وتأييده ، وجدير بالمكذبين أن يتمثلوها حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب أسلافهم من قبل

قصة الاب الثانى للبشرية

وبدأت السورة بالأب الثانى للبشر ، وهو نوح عليه السلام ، فذكرت انه دعا قومه الى توحيد الله ، وانه أنذرهم الشقاء الأبدى اذا هم أعرضوا عن دعوته ، واستمروا على عبادة الأصنام من دون الله : « انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » وذكرت ان القوم طعنوا فى رسالته ، فقالوا : انه بشر مثلهم ، والبشر لايصلح فى نظرهم أن يكون رسولا ، وقالوا : انه لم يجب دعوته الا أراذل القوم يريدون الطبقة الدنيا « الفقراء » ولو كانت حقة لسارع اليها أرباب المصالح والثراء « الطبقة العليا » ، وانه لا ينبغى لهم أن يجعلوا أنفسهم وهم أصحاب المال والسلطان فى مستوى هؤلاء الفقراء ، يجمعهم واياهم دين واحد ، ويخضعون معهم لسلطان واحد ، وانهم لا يرون لهم ، ولا لرسولهم من المزايا ما يهون عليهم أن ينزلوا بأنفسهم الى مشاركتهم فى اتباعه والايمان به ، ولعل هذا الموقف

من قوم نوح ، هو أول بعث لفكرة الطبقــات ، التى تقلب بها المجتمع البشرى ــ ولا يزال ــ على كتل من الجمر ، محرقة للفضائل ، مضيعة للكفارات ، فمتى يفيق العالم وهو فى آخر مراحل الرقى ، ويخلص نفسه من هذه العلة المزمنة التى اندفع اليها وهو فى طور الطفولة الذى لا رشد فيه ؟ ..

ثم جاءت الآيات تفند هذه الطعون ، وتقتلع هذه الفكرة من أساسها وتقرر أولا أن صاحب الدعوة ، وقد توافرت لديه أدلة الايمان بها ، ليس من شأنه أن يكرههم عليها اذا خفيت عنهم ، وهو لا يطلب منهم مالا ولا عزة ولا ترتبط دعوته بالمــال ولا بالسلطان ، وانما يدعوهم اليها طلبــا لخيرهم ، وعملا على مصلحتهم ، فعلام هذا الموقف الذى ان دل على شىء فانما يدل على التمرد والبعد عن فهم الحقائق ؟.. والا فكيف ينقمون منه ان أجاب الفقراء دعوته ؟ وهى دعوة الله الذى لا يزن خلقه بميزان الغنى والفقر ، ولا بميزان القوة والضــعف وانما يزنهم بمقيــاس الصــفاء والاخلاص ، والايمان بالحق الذى يدعو اليه . كيف ينقمون منه هــذا ويطلبون منه أن يطردهم : « وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ، وياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم » ؟

ان النبوة ليست أكثر من اصطفاء الله لمن يقوم بتبليغ رسالته ، وليس من لوازمها ، بل ولا يصح أن يكون من لوازمها أن يكون الرسول ملكا ، أو أن يكون عنده خزائن الله ، أو أن يكون محيطا بغيب الله فهو بشر ، يقف عند حدود البشرية ، لا يتجاوزها الا بمقدار ما يوحى اليه ، وهو بذاته لا يعلم الا ما يعلمه البشر ، ولا يقدر الا على ما يقدر عليه البشر ، وان الله قد كلفه بتبليغ رسالته ، ولم يجعل الناس أمامه فى التبليغ الا كما جعلهم فى الخلق ، سواسية لا طبقات ، ولا أسياد ، ولا أراذل « ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذن لمن الظالمين »

سفاهة قوم نوح

وقف نوح مع قومه ألف سنة الا خمسين عاما ، يقيم الحجة ، ويدفع الشبهة حتى أخرسهم الحق ولم يجدوا منفذا للقول . فراحوا يستعجلون العذاب الذى توعدهم به ، شأن الموغل فى العناد ، يلقى بنفسه فى اليم ، أو فى النار ، حتى لا يقال : غلب على أمره ، وخضع لغيره ، ولا يدرى انه يسجل على نفسه نهاية الخزى فى الاعراض عن الحق تبعا لشهوة باطلة ، أو خيال فاسد : « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » ، فيقرر لهم نوح الحق الذى يؤمن به « انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين »

وتأتى المرحلة الأخيرة فيعلم الله فيها نوحا انه لن يؤمن من قومه الا من قد آمن ، فاطو صفحة جهادك معهم ، واتخذ وسيلة لنجاة لك ولقومك : « واصنـــع الفلك بأعيننـــا ووحينـــا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون » ، فيمتثل نوح الأمر ، ويصنع الفلك « وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » ، فيؤكد لهم ان عاقبتهم فى موقف السخرية والعذاب ، هى عاقبتهم فى موقف السخرية بالرسالة ، سيصيبهم خزى العذاب ، كما أصابهم خزى الحجة والبرهان . وان من العذاب ما يرفع صاحبه الى الهامات ، وهو عذاب الرسل والمجاهدين فى سبيل الحق يصيبهم على أيدى الطغاة الظالمين ، وهو عذاب مستعذب ، مشرّف لصاحبه ، يعقبه نعيم مقيم ..

ومن العذاب ما ينزل بصاحبه الى أحط الدرجات ، ويكون مثلا يشفى صدور المؤمنين ، ويزعزع كيان المبطلين ، وهو عذاب الاعراض عن الحق والكيد لأهله وهو عذاب الخزى الذى يعقبه عذاب دائم أليم « فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم »

الربع الثالث :

نبوة الايمان هى الحقة

(*) صنع نوح السفينة ، وأتم عدته ، ونفذ ارشاد الله ، وحمل فيها مع أتباعه من كل صنف زوجين اثنين ، وفار التنور ، وتفجر المـاء حتى طغى ، وأخذت السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال « ونادى نوح ابنـه وكان فى معزل : « يابنى اركب معنـا ، ولا تكن مع الكافرين » . فأبى الولد ، وعزف عن دعوة أبيه ، واعتقد انه يعتصم بغير الله ، ودفعت نوح شفقة الأبوة الطبيعية ، فطلب من الله انجاز وعده فى أهله معتقدا أن ابنه من أهله ، الذين وعد الله بنجاحهم مع نوح : « ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » . فيرد الله عليه بأن البنوة الطبيعية لا مكانة لها عند الله ما لم تشد ازرها بنوة الحق ، والاعتصام بأمر الله « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان » ، « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولوكانوا آباءهم أوأبناءهم أو اخوانهم أوعشيرتهم » ، وهذا فى رسالة محمد يؤكد ويفصل ما جاء فى رد الله على نوح : « يانوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح » ويدرك نوح زلته ويلتمس من ربه المغفرة : « انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » فيغفر الله لنوح زلته ، ويتم عليه وعلى من معه نعمته : « وقيل بعدا للقوم الظالمين »

الطوفان

وقع الطوفان ، وذهب بأعداء الله ، أعداء الحق ، وتلك عبرة القصص فى القرآن ، وقد صرف الناس عنها بحوث وضعت فى الكتب والتفاسير ، شغل الناس بها عن العبر والعظات ، وكان من ذلك الكلام الكثير فى عموم

(*) الايات من ٢٥ الى نهاية الاية ٤٠ من سورة هود

الطوفان وخصوصه ، وعموم رسالة نوح وخصوصها ، فمن قائل : بأن الطوفان لم يكن عاما ، وان التناسل البشرى لم يكن خاصا بذرية نوح ، ولم يكن نوح الأب الثانى للبشر ، وأن رسالته كانت خاصة بقومه بحكم السنة الالهية فى ارسال الرسل الى أقوامهم . ومن قائل بأنه لم يكن بسطح الأرض سوى قوم نوح الذين لم يؤمن منهم الا قليل ، وهم الذين كانوا معه فى السفينة ، وان رسالته كانت عامة بحكم انحصار الناس فى قومه لا بحكم انه مرسل لهم ولغيرهم ، وان نوحا هو الأب الثانى للبشر ، تناسلت البشرية من ذريته فقط بعد الطوفان ، وان الطوفان كان عاما للمعمور من الأرض اذ ذاك

هكذا اختلف الناس وأكثروا من القول

راى الامام الاكبر

والذى نراه ان المسألة من المعارف البشرية التى تركها الوحى لبحث الانسان ، لا تفسيرا للقرآن ، وليس من مهمة القرآن أن يحدد الأوضاع ، ولا أن يعين الوقائع ، وانما مهمته الارشاد الى ما تدل عليه القصة من جهات العظة وأنواع العبرة . وعلى كل ف « نوح » أرسل لقومه فقط ، أما انه كان فى المعمورة غير قومه ولم يرسل اليهم ، أو انه لم يكن فيها سواهم ، فهذا شىء ليس له تأثير فى هدف القصة ، ولا يمس اختصاص محمد عليه الصلاة والسلام بعموم الرسالة لقومه ولغير قومه الموجودين على سطح الأرض ، ومن سيوجد عليها الى يوم الدين : «قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا »

هذا .. وفى العظة المقصودة من هذا القصص ، وفى دلالته على أن القرآن من عند الله ، يختم الله قصة نوح بقوله لنبيه على مسمع من القوم : « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين »

قصة هود

ثم تتبع الآيات قصة نوح ، بقصة هود عليه السلام ، فتذكر دعوته أيضا الى قومه ، وانه أخذ بهم الى سبيل الخير والقوة عن طريق عبادة الله وحده ، واستغفارهم مما هم فيه من الطغيان : « استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » . وتذكر معارضة قومه له وانكارهم عليه ، وان آلهتهم أنزلوا به الجنون والاضطراب ، فيتبرأ هود من آلهتهم ويتحداهم ، ويستنهض همتهم فى أقصى ما يستطيعون من قوى الكيد ، وانه سوف لا يعبأ بهم ولا بجمعهم : « انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها » ..

وتذكر بعد ذلك خاتمة أمره مع قومه على حسب سنة الله فى نصرة أوليائه ، وخزى أعدائه :

« ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة الا ان عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود »

سـورة الكهف

تقديم :

(*) سورة الكهف هى السورة الثالثة من سور خمس فى القرآن الكريم ، بدئت بـ « الحمد لله » قبلها سورتان هما الفاتحة ، والأنعام ، وبعدها سورتان هما سبأ ، وفاطر . وسورة الكهف تضع حدا عن طريق التربية الروحية لضلال قديم ألفه الناس فى تقويم الحياة ، ذلك هو تقدير القيم الانسانية بحظوظ المال والثراء والجاه ، وتبين أن ما على الأرض من زينة ونعم مادية انما كان طريقا لاختبار الناس أيشكرون أم يكفرون ؟.. وليس هو كل ما يقصد من الحياة ، بل هناك ما هو أسمى منه وأرفع : « انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا »

قصص وأمثلة للعظة والعبرة

وفى سبيل ذلك تقص ثلاث قصص لكل منها دلالتها الخاصة فى تقدير الحق بذاته ، وارتباطه بطهر العقيدة ونقاء النفس لا بالمال ولا بالحياة : قصة أصحاب الكهف ، وهى قصة التضحية بالنفس فى سبيل العقيـدة : « انهم فتيـة آمنوا بربهم وزدناهم هدى » . وقصـة موسى مع العبـد الصالح ، وهى قصة التواضع الذى لا يعرف فى سبيل العلم والتكمل بالمعرفة التكبر ولا الغرور : « هـل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » ؟.. وقصة العدل واغاثة الضعيف ، وهى قصة ذى القرنين الذى اتصف بعدله وقضى بقوته على المفسدين

(*) تقدمة عامة لسورة الكهف

وكما استخدمت السورة فى سبيل هدفها هــذه القصــص الثــلاث استخدمت فيه من جهة أخرى أمثلة ثلاثة ، بينت بها ان الحق لا يرتبط بكثرة المال ولا بعلو الانسان ، وهو مثل الغنى المكاثر بماله والفقير المعتز بايمانه : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين .. » ، ومثــل الحياة الدنيا وما يلحقها من فناء : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء » . ومثل ابليس وما أصابه من الطرد والحرمان جزاء تكبره واستعلائه : «واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس». وهنا حــذرت الآيات أبناء آدم أن يتخذوه وأعوانه أوليــاء من دون الله وبينت لهم انه وذريته أعداء لهم من أول النشأة ، يدفعونهم الى الشر ويكيدون لهم عن طريق الاغواء ؛ ويصرفونهم عن أرباب النفوس الزكية ويطلبون اليهم أن يطردوهم عن مجالسهم ، لما هم عليه من فقر وضعف

ثم تبين أن هؤلاء الذين يحاولون اضلال الناس عن الحق ليس لهم فى شأن الله ونظام خلقه من أمر ، فهو لم يحضرهم وقت أن خلق ونظم ، وهو لم يعتمد عليهم فى فعــل أو يشركهم فى رأى ، فكيف يجعلون لأنفسهم سلطان التوجيه ؟.. وكيف تروج عند الناس وسوستهم ..؟ « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا». فتخلوا عنهم كما سيتخلى عنهم شركاؤهم ويسلمونهم الى النــار « ولم يجدوا عنها مصرفا » . ثم تشير الآيات الى أن اعراضهم عن الحق لم يكن ناشئا عن حاجة الحق الى دليل وانما هو الطغيان الذى يمنع صاحبه من الايمان ، ويجعله يجادل بالباطل ليدحض به الحق ويحول بينه وبين التفكير فى العاقبة فلا يتذكر الا اذا استمر به العذاب أو فاجأته سنة الأولين ، تلك سنة المنكرين من قبل ، وسيراها المنكرون من بعد

ثم تذكر الآيات انه لولا رحمة الله بعباده وانه يمهلهم رجاء التوبة لعجل لهم العذاب ، ولكنه جعل لهم موعدا لن يجدوا من دونه مصرفا عن العذاب « وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا »

وجوب التواضع فى طلب العلم

ثم تذكر الآيات قصة التواضع فى طلب العلم الماثلة فيما جرى بين موسى والعبد الصالح : فان موسى مع علو شأنه فى المعارف الالهية لم يمنعه علوه عن تحمل المشاق فى سبيل العلم دون نظر الى مكانة من يريد التعلم منه ، وفى هذا ما يخفف حدة الكفار على الفقراء ، ويرشد الى أن العلم أسمى من المال ، وانه لا ينبغى أن يتخذ فقر العلمـاء مانعا من السعى اليهم ، وتزكية النفس بعلمهم ، فهذا موسى نبى الله وكليمه ، لا يكاد يعلم بالعبد الصالح وبما عنده من علم حتى يجمع أمره على الوصول اليه كيفما كان الطريق « لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا »

والتقى موسى بالعبـد الصالح وقدم له نفسه مستأذنا فى أن يجعل نفسه تبعا له ليعلمه : « هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشـدا » . فيطلب منه العبد الصالح التسليم فيما يرى والبعد عن الجدل ، فيطمئنه موسى على غاية الخضوع : « ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا » .. فيعده العبد الصالح بالبيان اذا هو التزم الشرط : « فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا »

وعلى هذا التعاقد ركبا السفينة ، وكان أول ما فوجىء به موسى أن العبد خرقها ، وكان لخرقها هول فى نفس موسى أنساه الالتزام السابق ، فأنكر عليه ، ثم عاد يعتذر بالنسيان

وكان الحادث الثانى أن قتـل العبد الصالح غلاما ، فعاد موسى الى الانكار وعاد العبد الصالح الى اللوم ، وموسى الى الاعتذار ، وهـدده صاحبه بقطع العلاقة ان عاد الى الثالثة ، وعاد الى الثالثة فأنكر عليه اقامة الجدار المائل ، وهو لقوم لم يحسنوا اليهم ، وهنا نفذ العبد الصالح تهديده لموسى وقال : « هذا فراق بينى وبينك سـأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا »

الربع الأخير

سر الاحداث التى انكرها موسى

وفى هذا الربع يفى العبد الصالح لموسى بما التزم ، فيكشف له عن سر الأحداث التى فعلها وأنكرها عليه موسى ، وهى خرق السفينة ، وقتل الغلام ، والاحسان لقوم لايعرفون قيمة الاحسان . وقد كان منشأ الانكار عند موسى انه لم يعرف سببا يبيح اتلاف مال الغير ولا قتل النفس ، ولا تحمل المشقة لقوم لا يطعمون المحتاج . ويدور البيان على أن وراء الظاهر واقعا يعلمه العبد الصالح ولا يعلمه موسى ، وهو الذى حمل العبد الصالح على فعل ما فعل ، وذلك الواقع هو أن ملكا ظالما كان يتتبع السفن الصالحة فى البحر يغتصبها من أهلها ، فرأى العبد الصالح أن يعيبها فتسلم لأهلها الفقراء : « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر » . وأما الغلام ، فقد علم العبد الصالح ان بقاءه مفسد لأبويه ، فاحتفاظا بسعادتهما ، وابقاء على ايمانهما قتل جرثومة شرهما : « فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما »

وفى حادث الغلام يتجلى بوضوح معنى قوله تعالى : « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » . ومعنى قوله تعالى : « وما فعلته عن أمرى » فالله واسع العطاء يهب ما يشاء من رحمته وعلمه لمن شاء من عباده

ولا متمسك لمن يدعون علم الغيب بهذه القصة ، فان أحد طرفيها كان نبيا ، يوحى الله اليه ولا يقره على ضلال ولا بهتان . ومن أين لهم مثل موسى نبى يوحى اليه ، وتجرى حوادثهم على يديه

وأما الجدار فليس الشأن فيه لأهل القرية ، وانما هو لأيتام كان لهم تحته أموال ، فمحافظة عليها أقام العبد الصالح الجدار . وتلتقى أحداث العبد الصالح الى حد ما ، مع قاعدة ارتكاب « أخف الضررين » التى

(*) الآيات من ٧٩ الى آخر سورة الكهف

تبيح للانسان أن يقدم على فعل فيه شر ما ، متى علم أن فيه خيرا أكثر من شره وقديما قيل : « شر قليل فى سبيل خير كثير خير كثير »

ولقد عرف موسى من هـذه الرحلة أن وراء الظاهر الذى يحيط به الانسان فى عادته باطنا تشرق عليه فيه أنوار الحقائق ، وبذلك يأخـذ نفسه بالصبر فى تجريد النفس عن التأثر بالعلائق المـادية ، والمنغصـات البشرية ، ويصفوا لله فى الدعوة الى الله

نبأ ذى القرنين

ثم تقص الآيات نبأ ذى القرنين وهو ملك مكن الله له بتقواه وعدله أن يبسط سلطانه على قرنى المعمورة شرقا وغربا ، وكان من عدله الذى تقوم عليه الحياة وتسعد به الجماعة ذلكم المبدأ العظيم

« أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا »

ولا تصلح رعية لم يضرب فيها على أيدى الظالمين ، كما لا تصلح رعية لا يلقى المحسنون فيها جزاء احسانهم ، فبخس احسان المحسن لا يقل عن ضرر الجماعة عن محاباة المسىء ، كلاهما ينزل بالجماعة الى الحضيض . فاذا كانت محاباة الظالم تغرى بالظلم فان بخس الاحسان يحرج الصدر ويميت قوة النشاط . وتلك هى العبرة الخالدة فى هذا الجانب من قصـة ذى القرنين ..

أما الجانب الآخر من قصته : فهو ماثل من قوته واعتماده على الله فى اغاثة المستضعفين ونصرتهم وانقاذهم من افساد المستعمرين المغيرين عليهم وعلى بلادهم بدون حق

يصل ذو القرنين الى قوم لا تساعدهم لغتهم على حسن التفاهم معه ، ولكنه يفهم شكواهم والتجاءهم اليه : « قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهـل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا » ؟.. فتدفعه عاطفة الخير الى التلبية معتمدا على ربه قال :

« ما مكنى فيه ربى خير » . ويطلب منهم أن يتحملوا نصيبهم من المعونة باخـلاص وقوة فلا يتواكلوا . ولا يلقوا بكل أمرهم عليه ، ويقيم ذو القرنين السد بين الجبلين ، فلا يجد المفسـدون اليهم سـبيلا : « فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا »

واجب الراعى والرعية

وهذا شأن الملوك المخلصين المحبين للشعوب ، ولا تقبل دعوى خدمة الشعوب الا اذا اقترنت بالصـدق فى عمـل حازم يقى الشعوب ضرر المفسدين ، وواجب الأمة مع هؤلاء المخلصين أن يبـذلوا فى معونتهم ما استطاعوا بقوة واخلاص . أما دعوى خدمة الشعوب مع الكيد لها وتأليب الأعداء عليها ، فهى دعوى يجب أخذ الحيطة منها . وواجب الأمة حينئذ هو اعتمادها على نفسها وعلى قوتها النابعة من الايمان وحب الوطن

ثم تقرر الآيات ان الله بسننه يترك الناس فى هـذه الحياة يتدافعون ويتنافسون : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض » . ويستمر شأنهم كذلك الى يوم الدين فتنكشف لهم الحقائق بعد أن كانت أعينهم فى غطاء ، وبذلك تحذر الكافرين وتعلن أوصاف الآخرين ، وتردها الى الكفر بآيات الله والاستهزاء برسله . ثم تذكر جزاء المؤمنين الصالحين ، وتقرر سعة علم الله وسـلطانه ، وعجائب كونه وأسرار ملكه ، ثم تأمر الرسول بتقرير بشريته ، وأن يجمل للقوم رسالته : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »

سورة مريم

الربع الأول :

كهيعص

(*) سورة مريم من السور المكية التي تقرر توحيد الله وقدرته وتنزيهه عما لا يليق به ، وتقرر عقيدة البعث والجزاء . وهى احدى تسع وعشرين سورة بدئت بحروف هجائية . وقد لوحظ ان هذه السور تتحدث عن غريب غير مألوف ، كالقرآن ، وأنباء الغيب ، والتنويه بشأن القلم والخلق ، والايجاد على طريقة غير مألوفة

ولعلها لهذا بدئت كلها ببدء غير مألوف .. وهو تلك الحروف الهجائية التى تنطق بأسمائها لا بمسمياتها . وذلك ليكون البدء الغريب قرعا للأسماع واعدادا لتلقى غرائب لا تعرف السنن المألوفة

زكريا ويحيى

وقد ذكرت سورة مريم من تلك الغرائب قصتين : قصة نبى الله زكريا وولده يحيى ، وقصة السيدة مريم وولدها عيسى ، وأرشدت فى أولها ان ما ستتحدث به عن زكريا واجابة دعائه ، أثر لرحمة الله به ، ولا ريب أن الخلف الصالح ، الذى يحتفظ بمكانة أبيه ويقوم بمهمته من بعده ، امتداد لحياة الأب ، واستمرار لأثره ، الذى يتحقق به نفعه فى الممات ، كما تحقق نفعه فى الحياة

(*) الآيات من أول السورة حتى نهاية الآية ٣٦

الدعاء المجاب

عرف زكريا بدرســة أحوال أقاربه أن ليس فيهم من يطمئن اليه فى القيام بدعوته ، ورأى رحمة ربه لمريم وهى فى كفالته ــ كما تحدثت عنها سورة آل عمران ــ فشجعه ذلك على دعاء ربه أن يمنحه على كبره وليا يرثه فى مهمته ، فابتهل بعجزه وضعفه وخوفه من أقاربه : « رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا » ، « وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا » . فاخترق دعاؤه الحجب واستجاب له ربه : « يا زكريا انا نبشرك بغلام اســمه يحيى » ، وأكمل البشرى بالخلال الطيبة التى صاغ بها عطيته ، فأخذ السرور من زكريا مأخــذه ، وعاد الى المناجاة فرحا مستبشرا : « رب انى يكون لى غلام » . فيسمع من ربه الكلمة النافذة : « هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » .. فيعود زكريا ملتمسا علامة يعرف بها حصول الحمل ، ويتعجل بها السرور الواقعى : « رب اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا » . وقد جاءته هــذه الحالة فكان لا يخاطب قومه الا بالوحى والاشارة

وعبرتنا من قصة زكريا أن أقرب الدعاء الى الاجابة ما كان نابعا من القلب وخفيا حتى عن النفس ، ومقترنا بدلائل الذلة والحاجة ، وأخيرا ما كان مقصودا به وجه الله والنفع العام

قصة مريم

وتذكر السورة قصــة مريم وقــد آخى القرآن بين القصتين فى غير موضع ، وقصة مريم أدخل فى الغرابة من قصة زكريا . ولذلك ذكرت قبلها تمهيدا لها ، وقد تحدثت سورة آل عمران عن ولادة مريم وبشارتها بعيسى وبشأنه فى بنى اسرائيل . وتحدثت سورتها هذه عن حملها بعيسى ، وعن موقفها حينما تمثل لها روح الله بشرا سويا ، وعن خواطرها النفسية حينما بشرها بالغلام : « أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا » .

ومضت الخواطر تلعب بنفس مريم حتى جاء زمن الوضع فتضاعف همها ، واشتد حزنها ، لا لشك فى نفسها ، وانما لتقدير ظنون الناس فيها «ياليتنى مت قبل هذا! وكنت نسيا منسيا » . فيثبتها الله بآياته ، وينزع منها عوامل الاضطراب والخوف : « فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » ولكن مريم لا تزال حاجتها النفسية تلح فى معرفة ما تجيب به قومها . وهى لنفسها أعرف ، ولا تملك من أمر الناس شيئا ، فتلبيها الرحمة الالهية : « فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما » . وقد كان من قومها ما قدرت : « يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » . فالتزمت الصمت وأشارت الى كلمة الله ، فأجابهم بلسان بين واضح : « انى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ويوم أبعث حيا » ..

وبذلك تمت نعمة الله على مريم كما تمت على كافلها من قبل . وهكذا أجمل عيسى وهو فى المهد رسالة السماء الى الأرض . « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق » ولكن الأهواء أخذت بالناس فى شأنه الىجهات متباينة ، فمنهم من قال به على مريم بهتانا عظيما ، ومنهم من قال به على الله شيئا ادا : « ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » ..

الربع الثانى :

قصة ابراهيم

(*) وتذكر الآيات ، بعد قصتى زكريا ومريم ، قصة ابراهيم ،

(*) الايات من ٤١ الى نهاية الآية ٦٢ من سورة مريم

ولابراهيم مكانة انعقدت عليها القلوب . وقد عنى القرآن بالحديث عنه عناية خاصة . فتحدث عن امامته ، وعن بنائه البيت ، ودعوة الناس الى حجه ، وتحدث عن رحلته ، وأسلوبه فى الدعوة والحجاج ، وتحدث عن كرمه ، وتضحيته بنفسه وولده ، وتحدث عن وصيته لذريته ، وتحدث عن علاقة محمد به ، وبين انه أثر دعوته ، وان رسالته من رسالته . ومن ذلك كله اتخذه القرآن حجة لمحمد على مناوئيه من مشركين وكتابيين

وقد قال بعض العلماء فى ابراهيم : « كأن فتى الفتيـان ، سلم قلبـه للعرفان ولسانه للبرهان ، وبدنه للنيران ، وولده للقربان ، وماله للضيفان، وأهله للوديان واقرأ كل ذلك فى القرآن »

بهذا ونحوه خلـد الله ابراهيم : « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » . وكان من مظاهر ذلك انه ما من مسلم ولا كتابى ولا مشرك الا وهو يقدس ابراهيم ، وما من مسلم يصلى ليلا أو نهارا فرضا أو نفلا ، الا ويدعو الله فى صلاته أن يصلى ويسلم على محمـد ، وعلى آله ، كما صلى وسلم على ابراهيم وعلى آل ابراهيم . وهذا هو ابراهيم الذى يأمر الله نبيه أن يذكره لقومه ، فيخففوا من حدتهم ، وأن يذكره لنفسه فيتأسى به ، ويهتدى بهديه

أسلوب ابراهيم فى الدعوة

وتخص سورة مريم جانبا من جوانب ابراهيم هو أسلوب الدعوة بالحلم الواسع ، والأدب الجم ، الذى من شأنه الاستيلاء على العقل الناد والنفس العازفة ، مع وضوح الحجة وقوتها ، والتنبيه على مواضع الخلل والفساد :
« يا أبت لم تعبد ما لايسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليـا » . وهكذا يسلك ابراهيم فى دعوة أبيه طريق الحكمة والموعظة الحسنة ، فيقابله أبوه بالشدة والانكار

والتهديد : « لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا » فيقابل ابراهيم تهديد أبيه بالسلام عليه والدعاء له : « سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » . وهكذا تقف البنوة البارة من الأبوة القاسية . ومن قبل وقفت هكذا الأبوة الرحيمة مع البنوة العاقة ، دعا نوح ربه لنجاة ولده ، فعاتبه ربه وبين له أنه ليس من أهله ، ولكن للأبوة مكانتها ، فلم ينكر الله على ابراهيم سلامه على أبيه ولا دعاءه له ، احتفاظا باحترام البنوة للأبوة وان كانت مشركة ضالة . « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » . يعتزل ابراهيم أباه وقومه ، ويلقى بنفسه فى أحضان ربه ، فيهبه الذرية الصالحة التى تسير فى طريقه وتواصل دعوته : « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا »

رسل كرام

ثم تقفى الآيات بذكر موسى وما كان عليه من صفاء النفس واخلاص القلب لله ، وما خصه الله به من المناجاة والتكليم والتقريب : « وقربناه نجيا » ، ثم تذكر اسماعيل ، وما كان عليه من الصدق مع نفسه ، ومع ربه ومع أسرته التى هى درعه فى دعوته ، والصدق حلية الايمان وسبيل النجاح ، وطريق الخير والفلاح

وتذكر ادريس وما كان فيه من مكانة الصديقية والرفعة عند الله

وبعد أن تذكر الآيات هؤلاء الرسل كلا بخاصته ، وتشد بذكراهم أزر الرسول فى دعوته ، تعود فتجمعهم فى اطار من الشرف الالهى ، وتنسبهم جميعا الى آدم . فتربط بينهم برباط الرحم الانسانى العام ، كما ربطت الرسالة بينهم برباط الوحى الالهى

ثم تشير الى الرباط النسبى الخاص بذرية نوح ومن كان معه فى السفينة ، والخاص بذرية ابراهيم واسرائيل ، ثم تذكر امتيازهم الدينى

ومكانتهم الربانيـــة : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنـــا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينـــا واجتبينا ، اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا »

وبازاء هذه الشجرة الربانية النورانية تضع الآيات شجرة جافة مظلمة ، انحرفت فى وجهتها عن سلسلة آبائهم الأولين : تغلبت عليهم الشـــهوات ، وسخرتهم الأهواء وأنستهم حق الله ، وسجلت عليهم ســوء العاقبة ، ولا نجاة الا لمن عاذ اليه رشده فأدرك الحق ، وسلك طريق المرضيين عند الله وأولئك جزاؤهم « جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتيا . لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ، ولهم رزقهم فيهـــا بكرة وعشيا » ..

الربع الثالث :

من وصف الجنة

(*) قال تعالى : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » وعد الله فى الآيات السـابقة الذين تابوا وآمنــوا وعملوا الصالحات بالجنات ، ثم وصفها بيانا لمكانتها وعلو شأنها بأنها ليست كجنات الدنيا تزول وتفنى ، ويعتريها النقص والذبول ، وانما هى جنــات عدن واقامة دائمة ، وبأنها منحة الرحمن لعباده جزاء ايمانهم بها عن طريق الوحى دون رؤية ومعاينة ، وبأنها مطهرة من لغو الدنيا وباطلها ، وان كل ما فيها غذاء للأرواح ، وسلام وأمان ومشاهدة « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » وتأكيدا لاستحقاقهم اياها يخلع الله عليها صبغة الميراث الذى يصــل الى الانسان بحكم القانون العام الذى لا اختيار له فيه ، وكثيرا ما تستعمل كلمة « الارث » ولا يراد منها الانتقال من مالك سابق الى آخر لاحق ، وانما يراد بها ثمرة العمل والجهود وذلك كما يقال : هــذا عمل يورث

(*) الآيات من ٦٣ الى آخر سورة مريم

الشرف ، ومعناه يحصله ويخلده . ومن هذا قوله فى جزاء العاملين بالجنة :
« تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا »

ونظرا الى أن أهم أهداف البيان القرآنى تقوية الجانب الروحى ، ولفت النظر الى ما يؤازر التقى فى تحمل أعباء التكاليف ، كان من سنته المفاجأة فى أثناء الموضوعات الخاصة بما يجدد للقلب نشاطه ، ويجعله على اتصال دائم بربه يستمد منه العون والقوة ، ويطمئن به على حسن معونتـه ، وبلوغ غايته ..

ترى ذلك فى سورة البقرة اذ يفاجىء وهو فى أحكام الطلاق والأسرة بقوله : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين »

وفى سورة طه اذ يفاجىء ـ وهو فى حديث يتصل بالناس جميعا ـ بقوله فى شـأن خاص بتلهف الرسـول على تلقى الوحى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما » . ومن ذلك قوله فى سورتنا على ألسنة ملائكة الوحى فى شأن نزولهم على النبى صلى الله عليه وسلم وتطمينه على السير فيه الى النهاية : « وما تتنزل الا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ، رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا »

البعث حق

ثم تنتقل الآيات وترد على حجج المكذبين فى انكار البعث : « ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ، أو لا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » . ثم تفرض الآيات وقوع البعث وانه غير محتاج الى برهان ، وتترك الحديث عن امكانه الى الحديث عما يكون فيه لهؤلاء المنكرين من مشاهد العذاب ، وما يلقون من آلام : « فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا »

غــرور

ثم تذكر غرور الكفار بدنياهم ، واعتزازهم بأموالهم ، وزعمهم انهم متفوقون بها عن هؤلاء المؤمنين الفقراء الذين لا جاه لهم ولا سلطان ، وترد عليهم بذكر أسلافهم الذين كانوا أشـد منهم قوة وأكثر أموالا : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خيرمقاما وأحسن نديا ، وكم أهلكنا قبلهم منقرن هم أحسن أثاثا ورئيا». وترشد الى تمكينهم من ظواهر هذه الحياة ليس الا اغراقا لهم فى الفتنة والاختبار ، وسيرون عاقبة أمرهم وأمر الذين بهم يستهزئون ، سيحصى عليهم كل شىء ، وسيجمعون فى ساحة العدل ، يوم لا ينفع مال ولا بنون : « فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا » . « سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول ويأتينا فردا »

زعماء الضلال

ومنعادة الضالين فىكل زمان أن ينتحلوا لهم أئمة وزعماء ، ويصورروهم للناس أن بيـدهم عزهم وفلاحهم . وعن ذلك الطريق يضلون كثيرا من الناس عن سبيل الله . والآيات تؤكد لهؤلاء وأمثالهم ان هؤلاء الأئمة المنتحلين سيتبرءون منهم ويكفرون بعبـادتهم ، يوم تنكشف الحقائق ، فيحشر المتقون الى الرحمن وفدا . ويساق المجرمون الى جهنم وردا ، ليس لهم من شافع ولا نصير

ثم تعرج الآيات على زعم باطل ، صوره الوهم الفاسد ، والهوى المتبع لكثير منالطوائف ، فاتخذوه عقيدة يذيعونها وينتقصون الله بها ، ينافحون عنها ، ويفسدون بها فطرةَ الله التى شهد بها كونه فى تنزيه الله عن الوالد والولد : «وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا ادا . تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا »

صورتان

ثم تختم السورة بوضع صورتين متباينتين :

صورة للذين آمنوا وعملوا الصالحات يتجلى فيهـا ارتباط قلوبهم ، وارتباط قلوب الناس بهم برباط المودة والمحبة : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا »

وصورة للكافرين الجاحدين ، تمزق العداوة فيها ما بينهم من صلات ، وتملأ قلوبهم وقلوب الناس بالتباغض حتى يقضى عليهم بأيديهم ، ويفنى بعضهم بعضا ، فتتم عليهم كلمة الله : « وكم أهلكنا قبـلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو نسمع لهم ركزا »

سورة طه

الربع الاول

(*) وسورة طه من السور المكية الأولى ، وقد نزلت لشد ازر الرسول ، وتقوية روحه ، وعدم التأثر بما يلقى من الكيد والعناد ، ولارشاده الى أن مهمته هى فقط التبليغ والتذكير ، وسينتفع بهذا التذكير من طهرت نفسه وأشرق عليها نور الفطرة الطاهرة من الأهواء وزخارف هذه الحياة ، وانه ليس من مهمته أن يؤمن الناس ، حتى تشقى نفسه ويضيق صدره بكفرهم واعراضهم : « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى »

وبعد أن ترفع عنه تبعة كفرهم ، تطمئنه على نجاح دعوته ، من جهة انها دعوة القوى القادر الذى خلق الأرض والسموات وبسط سلطانه بالرحمة على خلقه ، ونفذ تدبيره الى بواطن ما خلق ، واكتنه علمه سر القلوب واحساسها ..

ثم تجمل له أوصاف الجلال والجمال فى كلمة التبليغ التى أمر بدعوة الناس اليها وتذكيرهم بها : « الله لا اله الا هو له الأسماء الحسنى »

ثم تقص عليه ، تطمينا وتسلية ، نبأ أخيه موسى وقد أرسل بما أرسل به وقوبل بأشد مما قوبل به ، فصبر وكانت له عاقبة الصابرين . وكما تذكر له قصة الصبر على مكايد القوم ، ونتيجته فى موسى ، تذكر له قصة التسرع والتأثر بالمغريات فى آدم ، وما لحقه بعدم الثبات والعزم ، وبذلك عالجت السورة رسول الله من الناحية الايجابية التى يريد الله أن يتحلى بها فى دعوته وهى الصبر ، وعالجته من الناحية السلبية التى يريد الله أن

(*) الآيات من ١ الى نهاية الآية ٤٧ من سورة طه

يعصم نفسه منها وهى الحزن وعدم الثبات

ثم تختتم باجمال المبادىء التى تملأ قلبــه بالصــبر والوثوق بحسن العاقبة ، فتأمره بالصبر على ما يقولون ، وبتنزيه الله وتذكره الاعتمــاد عليه . وتحذره أن يمد عينه الى متعة الكافرين من زهرة الحياة الدنيا ، وتأمره بتزكية أهله وتوجيههم لعبادة الله وحده ليكونوا عونا على أداء مهمته كما كان هرون عونا لموسى

ثم تنزع من نفسه خيال الحاجة الى الرزق وتكله الى الله المنعم الذى تكفل بحاجته ورزقه : « ورزق ربك خير وأبقى» . « نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » ثم بعد أن تزوده السورة بالأسلحة التى يبدد بها خواطر الضيق والحرج ، تغرس فى نفســه كلمة الواثق من نفسه ، ومن دعوته ، ومن عاقبته : « قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى »

معنى الشقاء هنا

تلك سورة طه ، ومن هذا العرض الوجيز يتضح ان الشقاء المذكور فى قوله : « لتشقى » ليس هو الشقاء الجسمانى الذى نشأ من طول اقامته فى التهجد على احدى قدميه حتى تورمت ، وان « طه » ليست نداء له بمعنى يا رجل ، أو فعلا يأمره بأن يطأ الأرض بقدميه ، ليس شىء من ذلك كما تريد أن تفسره الروايات ، وليس من السهل ــ والرسول يعرف دين الله ويسره ــ أن يقبل شىء من هذا . كما انه لم يعهد فى القرآن الكريم نداؤه صلى الله عليه وسلم باسمه العلم ، فكيف ينــادى بأعم العنــاوين كيا رجل ؟.. ثم كيف يقبل هذا وذاك وليس فى السورة شىء يتصل بقيامه فى عبادته على قدميه أو على احداهما ، فالشقاء هو الشقاء النفسى الذى تولت السورة من أولها الى آخرها علاجه

و « طه » هى كأخواتها ، حرفان من حروف التهجى التى افتتح بها كثير من السور التى عرضت للتنزيل ومصدره وفائدته للناس ، وقد خوطب

النبى بعدد غيرها من تلك الحروف ولم يكن الخطاب دليلا على أن الكلمة نداء له أو أمر له بمعناها : « المص كتاب أنزل اليك » . « الر كتاب أنزلناه اليك » هذا هو الحق ، وللروايات أن تجول وتصول فى كتب التفسير ، ولكن الله منزل الكتاب حافظه وحارسه

قصة موسى

وقد قصت السورة من قصة موسى اختياره لتحمل الرسالة ، وأجملتها فى التوحيد والعبادة والبعث « وأنا اخترتك ، فاستمع لما يوحى » وذكرت السلاح الذى منحه الله اياه فى الدعوة ودربه عليه وهو العصا واليد البيضاء ، وذكرت أمره بالتوجه الى فرعون الذى طغى ، وذكرت أن موسى فى سبيل تحمل الرسالة طلب الى ربه أن يقوى قلبه وأن يسهل له أمره وأن يمنحه لسانا بينا ، وأن يجعل له وزيرا صادقا ، وتلك عدة الداعى فى دعوته ، وان الله أجاب موسى الى ما طلب ، وذكره بكفالته اياه من عهد المهد الى مراحل الاعداد والتنفيذ : « اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » وهذا ارشاد الى طريق النجاح فى الدعوة ، قد سلكه ابراهيم من قبل ، وأمر به محمد من بعد : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة » . وقد أثار علم موسى بطغيان فرعون وشدته الخوف فى نفسه بعدم نجاحه ، فنلقى عليه تلك الكلمة التى تقتلع جبال الخوف الراسخة عروقها فى جوف البحار : « لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى » فيمتلىء موسى ايمانا بمعية الله وحضانته ، ويتلقى من ربه مرة أخرى : « فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى »

الربع الثانى :

(*) وفيه يوجه موسى وهرون الانذار الالهى لفرعون وقومه ، ولم تشأ الحكمة الالهية أن يوجه الأخذ بالعذاب الى شخص فرعون اذا كذب وتولى ، وانما ربطه بالتكذيب والتولى كيفما كان ، ومن أى انسان كان ، وفيه تنبيه على ما يغضب الله ، وتلطف بالغ فى توجيه الانذار

اسئلة واجوبة

وقد سألهما فرعون عن ربهما صاحب الوحى ، ومصدر الانذار ، وسألهما عن القرون الأولى وما تم فى شأنها ، اختبارا لعلمهما ، وكأنه ظن أن الاحاطة بشئون الماضين من لوازم ادعاء الوحى والرسالة ، وقد أجابه موسى عن السؤال الأول بآثار الربوبية التى تنطق بها الفطر وتشهد بها الكائنات والنعم : « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » أعطى كل شىء الوضع والشكل الذى به تتحقق فائدته ، ثم أودع فيه القوة التى توجهه نحو تلك الفائدة . وكان جواب السؤال الثانى أن شئون القرون الأولى ليس علمها من خصائص النبوة والرسالة ، فنحن بشر لا نعلم الا ما علمنا الله ، وانما هو من خصائصه سبحانه وتعالى فان شاء أعلمنا بها وان شاء أمسكها عنا : « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى »

وجوب النظر فى الآيات

ثم يذكر موسى لفرعون بعض الآثار البارزة للقدرة الالهية ، التى يجدر بفرعون أن ينظر اليها ، وأن يتعرف حقيقتها ومنشأها وانعام الله بها عليه وعلى الناس : « الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا

(*) الآيات من ٤٨ الى نهاية الآية ٨٢ من سورة طه

أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى » تبصرهم بالرب وترشدهم الى جلاله وعظمته ، وتدفعهم الى الايمان به ، هذا هو الجدير بالنظر فيه

اشياء لا يفيد السؤال عنها

أما السؤال عن القرون الأولى فما فائدته ، وقد عميت الأبصار عن النعم الحاضرة ، والآثار البارزة ، وفيه ان شأن أولى النهى والعقول ألا يتركوا البحث والنظر فيما ينفع ويفيد الى البحث والسؤال عما استأثر الله بعلمه ودخل فى سر غيبه ، كحقيقة الشيطان وعلى أى شكل هو ؟.. وكيف يدخل فى جسم الانسان ؟.. وكيف يوسوس له ؟.. وعن الجنة : ما مادتها ؟ ما سعتها ؟.. ما أرضها ؟ ما سماؤها ؟.. وما الى ذلك مما يترك به الانسان الجاد النافع الى ما لايضر ولا ينفع . ثم لا يفوت موسى أن يذكر فرعون بالمبدأ والموت والبعث ، رجاء أن تهزه تلك الأطوار التى تمر بالانسان فتخفض من كبريائه : « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى »

لجاج وحجاج

وأمام روعة الأدلة التى يرشد موسى اليها لا يملك فرعون الا أن ترتعد نفسه ، فلا يجد الا جواب المبهوت الذى يهرف بما لا يكون : « أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى » . ومتى ، وأين ، وكيف عرف ان الساحر يقدرعلى أن يخرج بسحره مثل فرعون وهو يزعم انه الرب الأعلى؟ اللهم ان هى الا لجلجة الباطل ، وخذلان الافتراء

بين موسى والسحرة

وينتقل فرعون الى توعد موسى بسحرة مثله ، ويتفق معه على يوم العرض الذى يجتمع فيه موسى بالسحرة ، ويبذل فرعون أقصى جهده فى جمع السحرة ، ويلتقى موسى بهم ، فيقول لهم فى أنفسهم قولا بليغا ،

قياما بواجب الارشـاد والتبليـغ : « ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » ويتركهم موسى بعـد نصحهم يتنازعون ويتشاورون، وأخيرا جمعوا كيدهم وتواصوا فيما بينهم وقالوا : « ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبـا بطريقتكم المثلى » . ثم يقبلون على موسى ويخيرونه بين أن يتقـدم أو يتقدموا ، فيشير عليهم بالتقدم : « فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى » فيوجس موسى فى نفسه خيفة والانسان مهما بلغ من الايمان فانه يرى أن العاقبة بيد علام الغيوب فيطمئنه الله على موقفـه : « لا تخف انك أنت الأعلى » ويلقى موسى عصاه فتلقف ما صنعوا ، وهنا تخترق الحقيقة قلوب أهـل العلم وتضيء لهم الحق فى دعوة موسى فلا يملكون سوى أن يخروا سجدا : « آمنا برب هرون وموسى » . فتأخذ فرعون دهشة الحق ، ويتوعدهم بلجلجة الباطل : « آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر » فيعتصمون بسلطان الحق ويشرق عليهم نوره ، ولا يعبئون بتهديده ، شأن العلماء الواثقين بعلمهم « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا » . وستلقى جزاءك ، ولا يفوتهم أن يقرروا على مسمعه الحقيقة المقبلة التى أدركوها بعلمهم .. الفرق بين ما صنعوا وما ظهر على يد موسى : « انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لايموت فيها ولا يحيا ، ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى»

علم نافع وعلم ضار

وهكذا تكون نتيجة العلم الحق ، أما العلم الذى لا يصل بصاحبه الى كبد الحقيقة ، ولا يرفعه عن مستوى المجرمين الذين ينكرون الحق ، فجدير به أن يكون جهلا وعمى لا علما ونورا . وهكذا اتضح الحق لسحرة فرعون بعلمهم الحق ، واشتد غيظ فرعون وشـدد عليهم وعلى المؤمنين الخناق ، فيوحى الله الى موسى ، انقاذا لقومه ، وابقاء على دينهم باجتياز

البحر : « أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى » . وهكذا يمد الله أوليـاءه بما يرد كيد الأعداء . ولغرور الضالين طغيـان يدفعهم الى الدمار والتهلكة ، ومن ذلك يلقى فرعون بنفسه وجنوده خلف موسى ومن معه « فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى » وكذلك تكون القيادة الطاغية والزعامة الضالة تودى بأمتها الى مكان سحيق ..

***

قتل الانسان ما أكفره . ينقذ الله بنى اسرائيل على يد موسى ، ويرفعهم من الذل الذى كانوا فيه ، ولكن يعاودهم سوء التربية والنشأة ، ولا تقبل نفوسهم العزة فتمردوا على موسى الذى جاهد فى سبيلهم حتى أنجاهم وأعزهم ، والآيات تذكرهم بتلك النعمـة ، علهم يخففون من شـدتهم ويثوبون الى رشدهم : « كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى » ثم ترشد الى سنة الله فى العفو والمغفرة مهما تضخمت الذنوب ، وعظمت الآثام والجرائم ، ترغيبا للعباد فى الخير ، وتطهيرا لهم من الشر : « وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى »

سورة النمل

الربع الأخير

(*) هذا هو الربع الأخير من سورة النمل ، وسورة النمل من السور المكية التى عالجت أصول الدين من التوحيد والرسالة والبعث ، وهى احدى سور ثلاث نزلت متتالية ، ووضعت فى المصحف متتالية : وهى سورة الشعراء ، وسورة النمل ، وسورة القصص واشتركت ثلاثتها فى المنهاج ، بدأت كل منها فنوهت بشأن الكتاب وما تضمنه من ارشاد وهداية ، ثم سلكت مسلك العظة والعبرة عن طريق القصص الذى يوضح سنة الله فى معاملة المكذبين الأولين ، وعن طريق لفت الأنظار الى آثار القدرة الباهرة التى لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وعن طريق التحدث عن الأحوال والمشاهد الهولية التى يصيرون اليها أو تصير اليهم يوم البعث والجزاء . وهو حديث اليها أو تصير اليها يوم البعث والجزاء

وقد عرضت سورتنا فيما يختص بجانب البعث الى انكار القوم له وسخريتهم به حتى قالوا : « أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون . لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا أساطير الأولين » وحتى قالوا : « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » وفى سبيل الرد عليهم ذكرتهم بعاقبة أسلافهم الذين كذبوا بالبعث : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » . وأرشدت الرسول عليه السلام أن ينذرهم بمشارفة بعض أنواع العذاب الذى يستعجلونه ، وانهم سيرونه قريبا فى الدنيا بأيديهم وأيدى المؤمنين . وان ارجاءه انتظارا لايمانهم لمن فضل الله عليهم وهو عالم بما تكنه صدورهم ، ومحيط بكل غائبة ، وانه سيقضى بينهم

(*) تقدمة الآيات ٨٢ الى آخر سورة النمل

بحكمه فلا يضيق صدرك يا محمد باعراضهم : « وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم » . ثم تشير الآيات الى ما يصيبهم من العذاب الأكبر الذى أعد لهم فى الآخرة

وفى هذا تذكر بعض العلامات الدالة على قرب وقوعه ، وان دابة لها من غرابة الشأن ما لها ستخرج لهم من الأرض تنطق بالحق الذى أنكروه . وان الناس أعرضوا وضلوا عن آيات ربهم ، وقدتكلم الناس كثيرا فى شأن هذه الدابة وأسرفوا حتى قيل : انها ولد ناقة صالح فر الى حجر فتح له فاه حينما عقر القوم أمه فدخله فهو فيه حتى يخرج علامة من علامات الساعة وماذا علينا لو وقفنا فى حديثنا عن المغيبات عند القدر الذى أخبر به القرآن ، ثم تركنا ما وراءه من التفصيل الى اليوم الذى يأتى فيه تأويله وبيانه ، وليس الخبر متعلقا بعمل مطلوب من العباد ، وانما هو انذار ووعيد وتهديد

***

فلنقف عند حد العبرة ، ولا نخفى فيما استأثر الله بعلمه « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » ..

ثم تسوق الآيات بعد هذه العلامة ، بعض الأهوال والمشـاهد التى يراها الظالمون فى هذا اليوم : حشر لآخرهم على أولهم ، وفزع واضطراب يزلزل كل ثابت . ويقطع ما بين أجزائه من صلات : « ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ، حتى اذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعلمون » . « ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين » ومعناه : « صاغرين » . « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء » . وهنا أيضا تكلم الناس

عن « الصور » فأخذوا يشرحونه ويصفونه ، وتكلموا عمن يحمله ، وعن عدد النفخات ، أهى اثنتان ، أم ثلاث ، أم أربع ، وعن أثر كل نفخة فى الكون وعن الذين يسلمون من الفزع المقصودين بقوله : « الا من شاء الله » تكلموا فى كل ذلك بما لا يتوقف عليه فهم العبرة ولا معرفة الهدف

وواضح أن فعلا من الله يصدر عن قدرته النافذة يقضى على هذه الحياة ، ويخرجها عن نظامها ، ويسلم أهلها الى حياة أخرى ذات نعيم دائم أو عذاب أليم

***

ثم أرشدت الآيات الى أن المكلفين أمام شرع الله ودينه ، اما محسن فله خير من حسنته ، واما مسىء فعاقبته الخزى والنكال : « من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار » ثم تختم السورة بهذه الوصية البالغة التى ترسم للنبى طريقه الذى يلزمه ، غير ضائق صدره بكفرهم ، وان هدايتهم لا تنفع أحدا سواهم ، وترشده الى تعرف نعم الله والمداومة على شكرها بحمده . وأن يكل القوم فى كفرهم وعنادهم اليه سبحانه وسيظهر الله خزيهم يوم يرون بأعينهم ماكانوا به يستهزئون : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون »

ســـورة القصص

الربع الأول :

(*) سورة القصص ثالثة سور ثلاث نزلت متتالية ، كما وضعت فى المصحف متتالية ، الثلاث سور تتفق فى منهجها وهدفها كما اتفقت فى جو نزولها ، وقد لوحظ أن اللاحقة منها تكمل أو تفصل ما اختزلت السابقة أو أجملت ، ولعل ما ذكرته سورة القصص فى قصة موسى وفرعون يتضح فى كثير منه انه تتميم أو بيان لما أجمل فيها فى السورتين قبلها

تسمية السورة

وعلى كل فهذه السورة هى السورة الوحيدة التى انفردت بحديث موسى عن نفسه وعن سبب هجرته من مصر الى مدين ، وهو المذكور بعد تفصيله بقوله تعالى : « فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » ، فهو قصص موسى ، وهو فى مصر مع المصريين ، وليس قصصه مع فرعون وقومه . ولعل هذا القصص الخاص هو الوجه فى تسمية السورة « القصص » وقد كانت حياة موسى من يوم أن ولد سلسلة ذات حلقات متصلة من غرائب الأحداث ، تتجلى فيها ــ أولا وقبل كل شىء ــ رهبة الطغاة من كل ما يتخيلون ان فيه زعزعة ملكهم ، والقضاء على سلطانهم الذى يسخرون به الضعفاء ويسومونهم به سوء العذاب

فرعون مرعوب

فها هو ذا فرعون يعلو فى الأرض ، يظلم ويستبد ، ويتخذ من رعيته سيوفا يضرب بعضها بعضا، وتلك عادة الطغيـان فى كل زمان ومكان ،

(*) الآيات من أول السورة الى نهاية الآية ٢٨ من سورة القصص

لا يدع الرعية تتماسك وتتحاب ، خوفا من تكتلها على ازالة سلطانه والقضاء على غطرسته وقد كان من أثر تلك الرهبة أن أوحى الى فرعون من بعض شياطينه أن وليدا يولد فى بنى اسرائيل يكون زوال الملك على يديه ، فيطير لب فرعون ويصدر أوامره الظالمة الغاشمة بذبح ذكور المواليد ، ويبعث عسسه ، ويبث عيونه لتعرف المواليد وتنفذ الأمر فيهم كى يطمئن على عرشه وسلطانه . ويولد موسى ، وتتلقاه قابلة فرعونية ، فيتولى الله رعايته بما يرد على فرعون كيده فيه وطغيانه عليه ، ولا يزال رب موسى يرعى موسى حتى يعده لما يريد من زعزعة الجبروت واذابة الطغيان ، والنهوض بالمستضعفين الى مصاف الزعماء والقواد المصلحين والأنبياء المرسلين : « ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » وهكذا سنة الله فى الطغاة الظالمين مع الضعفاء العاملين المخلصين، رأيناها فى فرعون وموسى ورأيناها فى محمد وأصحابه ، ورأيناها فى كثير من الأزمنة وكثير من الأمكنة . وحياتنا الحاضرة أكبر شاهد وأوضح مثال ، فهى سنة مطردة يعامل الله بها كل من حاد عن طريقه وطغى وبغى وأخذ بالناس عن طريق الهدى والرشاد

موسى الوليد

ولد موسى ونمى خبره الى فرعون واضطرب فؤاد أمه عليه ، فألهمها الله وسيلة الحفظ والرعاية ، وطمأنها وبشرها : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » تحمل أمواج البحر موسى حتى تقف به على باب فرعون وأهله فينشرح لمنظره صدر زوجه وتوصى بالمحافظة عليه « قرة عين لى ولك لا تقتلوه، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا »

من عجائب الاقدار

ومن عجائب الأقدار أن الله نجى موسى بالبحر من فرعون ، وأغرق فى البحر فرعون على يد موسى ومغزى هذا ان الله يعد للظالم قذيفة من صنع يده ، وانه يتخذ للظالم مقبرته التى تواريه مما كان يعير به فرعون موسى . فكان موسى قذيفة أطاحت بفرعون وعرشه ، وتعاظم فرعون بالأنهار تجرى من تحته فابتلعته البحار ، وفى هذا أكبر عبرة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ..

وصدق وعد الله مع أم موسى ، فرده اليها واحتضنتـــه وهو ولدها ، ورعاه الله حتى نبت فى بيت فرعون كريحانة زكية تنبت فى تربة مليئـــة بالأشواك والأقذار ، فيعمل جهده على ازالتها والقضاء عليها ، ويتعرف بأبناء النبوة وسلالة الأخيار ويربط الايمان بينه وبينهم ويعرفون فيه الملجأ عند الشـــدائد ، ويستنصرونه فى كربهم فينصرهم ، حتى كان ما كان : « فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين » ..

ويتلقى موسى نبأ ائتمار القوم به فيخرج من المدينة خائفا يترقب ملتجئا الى الله أن يهديه سبيل مدين وأن ينقذه من القوم الظالمين

خبر موسى وابنتى مدين

يصل موسى الى مدين فيجد امرأتين معهما انعام تريدان سقيها ولكن يمنعهما الحياء والضعف عن مزاحمة الساقين فيتقدم اليهما ويسقى لهما . فيذهبان الى أبيهما ويخبرانه خبره ، فيرسل اليه احداهما : « ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » . يطمئن موسى الى مضيفه الشـــيخ الذى أكرم منزله وأحسن مثواه ، ويرى الشيخ على موسى دلائل النبل والأمانة فيعرض عليه مصاهرته اياه فى احدى ابنتيه ، على أن يرعى غنمه ثمانى سنوات أو عشرا ، فيقبل موسى ذلك العرض ويتم الاتفاق ويحصل

القرآن : « ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل »

الربع الثانى :

(*) وفيه ان موسى عليه السلام وفى للشيخ الكبير بما التزم فى رعى الغنم ، ثم ارتحل بزوجه التى عرفها بالاستحياء ، وعرفته بالقوة والأمانة ، وكانت سكنه وشريكته فى تلكم الرحلة الميمونة التى تلقى فيها رسالة الهدى والصلاح ، رسالة انقاذ المستضعفين من ضغط الطغاة الجبارين

تكليف موسى بالرسالة

وهنا تذكر الآيات كيف وجه موسى الى مكان المناجاة الذى اختاره الله ليلقى عليه فيه نداء التكليف بالرسالة الى فرعون . يرى موسى نارا فيتوجه اليها ملتمسا دفئا بدنيا أو هاديا بشريا . فيرى النور الذى لا يلحقه ظلام ، ويسمع الهداية التى لا يعتريها ضلال ، يسمع نداء ربه : « ياموسى انى أنا الله رب العالمين » ، ويدربه ربه وهو بين يديه على عدته التى يعتمد عليها فى دعوته . يدربه على العصا يلقيها فتهتز كأنها جان ، ويدربه على اليد يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء : « فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه انهم كانوا قوما فاسقين » يتلقى موسى أمر ربه ويذكر انه قتل منهم نفسا ويخاف أن يقتلوه ، ويطلب من ربه أن يشد ازره بأخيه ، ويجيبه الله الى طلبه : « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون »

عناد فرعون وقومه

يصل موسى الى فرعون ويبلغه رسالة ربه فيسخر فرعون منه ويأخذه الكبر والجبروت ويهزأ بالدعوة : « ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا

(*) الآيات من ٢٩ الى نهاية الآية ٥٠ من سورة القصص

بهذا فى آبائنا الأولين » ، ويلقى على قومه حجاب التضليل : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى » ويشتد طغيانه ، فيهزأ حتى بالله رب العالمين « فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى»

سنة الله مع اعدائه

استكبر فرعون وجنوده بغير الحق وكانت العاقبة كما صور الله : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » وهكذا كانت سنة الله مع أعداء الله ، يجعلهم فى الدنيا أئمة يدعون الى النار ثم لا يسلمون منها من كيد الله ومكره ، ويوم القيامة لا ينصرون ، وهكذا سنته مع أوليائه دعاة الحق ، يجعلهم كما وعد أئمة فى الهدى ويجعلهم الوارثين : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون » . تلك قصة موسى مع فرعون وملئه ، أوحاها بجميع أطوارها الى محمد عليه الصلاة والسلام وفى كل طور منها أبلغ العظات والعبر لقوم يذكرون ، ثم قصها محمد على أهل مكة . وموقفهم منه عليه السلام هو موقف فرعون من موسى ، وخلدها الله فى كتابه لتكون العظة أتم والعبرة أشمل ، يطمئن بها فى كل زمان دعاة الحق على دعوتهم ، ويأخذ منها الضالون المفسدون ما يردهم عن طغيانهم ويبصرهم بسنة الله مع أسلافهم

انباء اوحى بها الله

يقص الله على محمد قصة موسى . ثم يوجه اليه الخطاب بما يقطع شك النفوس فى انه يبلغ عن نفسه ، فيذكر له انك تقص عليهم هذا القصص وما كنت مقيما فى أهل مدين تتلقى عنهم نبأ موسى فى سقى الأنعام ولا نبأه فى الزواج ، ونبأه فى الأجلين . تقص عليهم هذا القصص وما كنت مع موسى اذ ناداه ربه وحمله الرسالة ، ولكنها أحداث وقعت وتطاول عليها الزمن حتى نسى الناس رسالة ربهم وعادوا الى حلف فرعون

واستكباره ، فأرسلناك اليهم تجدد لهم عهدنا وتذكرهم بآياتنا وتقص عليهم أنباء المكذبين من قبل ، لئلا تكون لهم علينا حجة لئلا يقولوا : « لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين» . فبك أبطلنا حجتهم وقطعنا أعذارهم فقابلوك بما قابل به فرعون موسى ، وكانت قضية العقل تقضى عليهم بالايمان والتسليم . ولكن توارث الضلال شأن الضالين المضلين ..

والحق لا يسلم من باطل يحاول تزييفه ، واطفاء حرارته فى النفوس ، فقابلوا محمدا بما قابل به فرعون موسى وأنكروا عليه حجته وقالوا : « لولا أوتى مثل ما أوتى موسى » . فهل آمنوا بما أتى به موسى ؟.. أو لم يكفروا به من قبل ألم يقولوا عن موسى وأخيه : « سحران أو ساحران تظاهرا ، انا بكل كافرون » فهؤلاء من أولئك

ومسلك أهل الضلال واحد ، وحجتهم الزائفة واحدة تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم . أنكر أسلافهم دعوة موسى وأخيه . وأنكروا هم دعوة محمد وهما دعوة واحدة وهديهما واحد فهل لهم ان كانوا طلاب حق وهداية أن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما ؟.. أما أن يكذبوا دون أن يقدموا حجة أو يأتوا بخير وهداية ، فهذا ليس منطق العقل ، ولا منطق الحكمة ، وانما هو خداع الهوى وسلطان الضلال : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين »

الربع الثالث :

استمرار الجحود بعد تتابع الحجج

(*) نوع الله لأهل مكة أساليب الدعوة ، وألوان العظة والاعتبار ، نبه عقولهم للنظر فى آثار قدرته ولفتهم لتدبر سننه ، وكشف لهم عما أعد من عذاب مقيم ، وخاتمة سيئة للمكذبين المفسدين ، واتبع القول فى ذلك

(*) الآيات من ٥١ الى نهاية الآية ٧٥ من سورة القصص

كله بعضه ببعض ، ووافاهم بحججه وأمثاله منجما ، ليطلعوا كل يوم على حجة فيتدبروها ويعقلوها ، عظة بعد عظة ، وعبرة بعد عبرة . ومع هـذا لم يؤمنوا بل ظلوا على الاعراض والتكذيب ، ولو كانوا طلاب حق لكان لهم من توصيل القول ، وتصريف الآيات ما أنار لهم السبيل ، وأوضح أمامهم الطريق ، فلا تبتئس يا محمد بكفرهم واستمرار كيدهم وحسبك فى حقيـة دعوتك ان الذين تلقوا دعوة الله من قبـل ، وآمنوا بكتبه السابقة ، فأشرقت قلوبهم بنور الحق ، يدركون حقيتها وانها تلتقى مع دعوة اخوانك السابقين ، ويؤمنون بها كما آمنـوا بما أنزل من قبلك : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين »

ثناء وجزاء

وهنا تعرض الآيات لجزاء هؤلاء الذين سلمت فطرهم ولم تفسدها العصبيات الضالة ، كما تعرض لأوصافهم التى استحقوا بها ذلك الجزاء العظيم ، فتذكر صـبرهم فى مواقف الدعوة الى الحق ، وتذكر حلمهم واحسانهم لمصدر اساءتهم ، وتذكر سخاءهم وانفاقهم فى سبيل الله ، وتذكر ترفعهم بأنفسهم عن مجاراة السـفهاء واعراضهم عن خطتهم والسـير فى طريقهم ، والاختلاط بهم : « واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سـلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » . فتـلك سنة المؤمنين السابقين ، فاستقم أنت ومن آمن معك عليها ، ولا يحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ان ايمانهم ليس مطلوبا منك ، ولا تابعا لرغبتك ، وانما هو تابع لما يعلمه الله أنفسهم من طهر وصفاء ، وبه فقط تتحقق هدايتهم ، وبه يتوجهون الى الايمان : « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين» . كان القوم يعتـذرون عن عدم ايمانهم بالخوف من أقوامهم يفتكون بهم ويقضون عليهم ان هم آمنوا بمحمد ودعوته : « ان نتبع الهدى معك

تتخطف من أرضنا » ومعناه انهم يصيرون اتباعا بعد أن كانوا متبوعين ، ويجردون من سلطانهم بعد أن كانوا ذوى سلطان مرهوب ، فترد عليهم الآيات بأن هذه حجة مهلهلة وخيال كاذب ، ووهم باطل : فالله الذى مكن لهم من حرم يأمن فيه الخائف ، ويشبع فيه الجائع ، ويجبى اليه الثمرات لا يعجزه أن يحفظهم وأن يمكن لهم ضد من يناوئهم ، ولو انهم أنصفوا لعرفوا ان استمرارهم على الكفر ورد الحق وانكاره سبيل سنة الله لتسليط دعاة الحق عليهم وتمكينهم منهم : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ، وكنا نحن الوارثين »

ثم ترشدهم الآيات الى ان ما هم فيه من جاه ومال وسلطان مآله الى الزوال ، وانه لا يدفع عنهم شيئا من قضـاء الله : « وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون » . ثم تضع الآيات أمامهم صورتين متقابلتين ، وتحكمهم فى أى الصورتين خير الى عقولهم وضمائرهم ، صورة الذين يلبون دعوة الحق وبه يؤمنون ، وصورة الذين يرفضونها وبه يكفرون : « أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين »

ثم تذكرهم بما سيكون يوم القيامة بينهم وبين شركائهم من محاولة تخلص بعضهم من بعض ، وتبرؤ متبوعيهم من تابعيهم ، وبما سيكون منهم حين يسألون عن موقفهم من الرسل . فتتملكهم الحيرة وتلزمهم الحجة : « ربنا هؤلاء الذين أغوينا ، أغويناهم كما غوينا » أى لم يكن لنا سلطان فى غيهم وانما عرضنا عليهم أن يغووا باختيارهم كما غوينا . « تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون » . « ويوم ينـاديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ، فعميت عليهم الأنباء يومئذ ، فهم لا يتساءلون »

النبوة شأن من شئون الله

وكان القوم يستنكرون أن ينزل الوحى على رجل فقير يتيم من بينهم وقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ، فترد

عليهم الآيات بأن الاصطفاء للنبوة كالخلق ، شأنان من الشئون الخاصة بالله . فكما لا يخلق الا بمشيئته ، لا يصطفى الا بمشيئته ، فهو وحده العليم باستعداد خلقه وصلاحيتهم لما يريد : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة »

ثم تعود الآيات وتذكرهم بنعم الله عليهم ، ورحمته بهم فى تنظيم الليل والنهار على وجه يمكنهم من طيب الحياة . وتحاكمهم الى الفطرة فى الاعتراف بأن لا قدرة لأحد سواه فى ذلك التنظيم ، اذ هو جعل الليل أو النهار سرمدا : « من اله غير الله يأتيكم بضياء ؟.. من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ » فان استجابوا للحجة فقد آمنوا والا فقد عرضوا أنفسهم ليوم لا تنفعهم فيه شفاعة الشافعين ، ويضل عنهم ماكانوا يفترون

الربع الرابع :

علاج لنزعات الشر

(*) يعتز الناس فى دنياهم بما لهم من جاه ومال وسلطان ، وكثيرا ما تصرفهم نعم الله عليهم الى البطر .. تدفعهم الى الطغيان ، وتقطع ما بينهم وبين الله من صلات ، فينكرون الحق ، ويتزعمون عصابات الشر والفساد ، وكثيرا ما عالج القرآن هذه النزعة فى الانسان : فنبه بقصصه الى عاقبة الطغيان والبطر ، والى أن الجاه مهما عظم ، والمال مهما كثر ، والسلطان مهما اتسع ، فانه لا يرد عن صاحبه شيئا من قضاء الله اذا هو استمر على طغيانه وبطره ، وانه لاينبغى لعاقل أن يغتر ببسمة الدنيا ، فانها كما يقال : خداعة غرارة ، وانه لا نجاة من خداعها الا بالايمان والتقوى والعمل الصالح ..

(*) الآيات من ٧٦ الى آخر سورة القصص

قارون وامواله

بهذا مضت سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وفى سبيل تقرير هــذه السنة يقص الله علينا أمر قارون : كان من قوم موسى ، ولكنه لم يحفظ للقرابة حقها ، بل بغى وتكبر ، واتخذ نعم الله سبيلا لكيد عباد الله . أنعم الله عليه بمال تعجز الجماعة القوية عن حمل خزائنه ، أو حمل مفاتحه ، ونسى حق الله فى ذلك المال ، واعتقد طغيانا وكفرا انه من سعيه وكده ، وانه سيق اليه باستحقاق ذاتى ، وأعانه عليه حسن تدبيره ، ونفاذ أمره وسلطانه ..

وقد حاول عقلاء قومه ارشاده ونصحه وتذكيره بأن الدنيا لا يصح الاطمئنان اليها ، وان أحوالها فى تغير وتقلب ، وانه لا عاصم من شرها الا الايمان بالحق ، والعمل الصالح ، وان سعادة الانسان انما هى فى أن يتخذ من يومه لغده ، ومن دنياه لآخرته . قدم له عقلاء قومه ما استطاعوا من نصح وتذكير ، ولكن ران على قلبه ما امتلأ به من ضـــلال وطغيــان فأهمل مواعظهم ، وخرج بطرا فى زينته ، فاغتر به ضعاف العقول ، وتمنوا أن ينالوا مكانته . ولكن العقلاء ، الذين يقدرون الدنيا قدرها ، ويدركون منها ما لايدرك غيرهم ، أخذوا يؤنبونهم على هذا التمنى ، ويؤكدون لهم ان وراء هذه المظاهر الفاتنة الفانية ما هو أسمى منها ، وهو معرفة حق الله فى نعمه وان للبغى من العواقب ما يجدر بالعاقل أن يقدره ، وأن يدخله فى حسابه ، وقد صدقتهم العواقب فلم ينفع قارون ماله ولا جاهه ولا سلطانه ، وما هى الا دورة فلكية حتى كان قارون ومظاهر دنياه فى طى صحائف الماضى : « فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون »

حول زينة قارون

وقد ساق المفسرون كلاما كثيرا فى وصف زينة قارون ، وفى كيفية خسف الأرض به ، وحسبنا فيها ما تدل عليه كلمة « زينة » بالنسبة لما عهد فى مظاهر أرباب الجاه والمال ، وما تدل عليه كلمة « فخسفنا به وبداره الأرض » ، من زوال النعمة وانتزاع الملك والسلطان ، والذلة بعد العزة . ويعجبنى قول الامام الرازى فى هذا المقام : « والذى عندى فى أمثال هذه الحكايات انها قليلة الفائدة ، وانها فى أكثر الأمر متعارضة مضطربة ، فالأولى طرحها ، والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن ، وتفويض سائر التفاصيل الى عالم الغيب »

وأرجو أن ننهج فى تفسير كتاب الله هذا المنهج الدقيق الذى يحفظ علينا وعلى الناس ايماننا بجلال معانى القرآن وقصصه الحق الذى لاريب فيه ..

قص الله علينا فى السورة قصة فرعون ، وكيف كانت عاقبة علوه وافساده ، وقص علينا قصة قارون ، وكيف كانت عاقبة بغيه وتكبره ، وكلها سنن مطردة فى معاملة الله للمتكبرين المفسدين . ثم ختمت السورة بالارشاد الى أساس الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » ..

تربية

شأنان لا بد من تربية النفوس عليهما حتى تحظى بالسعادة عند الله : تطهير النفس من ارادة الظلم والافساد فى الأرض ، واتقاء ما يغضب الله من اهمال أحكامه وشرائعه ، واهمال سننه ونظمه ، وقد نبه القرآن كثيرا على أوصاف المتقين ، الذين ضمن الله لهم عز الدنيا وسعادة الآخرة ؛ فعلينا أن نتدبرها لنعرف كيف تتكون التقوى فى النفوس ، وكيف تبدو آثارها فى نفع البلاد والعباد

منزلة الرسول عليه السلام

انتقلت الآيات بعد ذلك الى شأن خاص بالرسول ، فطمأنته على المنزلة الخاصة والدرجة العالية التى أعدها الله له ، بما فرض عليه من تبليغ القرآن وبيان أحكامه ، والتى لا ينالها أحد سواه : « ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » . وبقدر ما يتعلق أتباع محمد بالقرآن يكون لهم من ذلك المعاد وتلك المنزلة . ثم يلفت نظره الى ان انزال هذا الكتاب اليه وتخصيصه به لم يكن ليتوقعه فى نفسه ، وانما هو من رحمة ربه به ، ومن رحمته بعباده ، فتمسك به يا محمد ، ولا تكونن ظهيرا للكافرين . وادع الى ربك ، ولا تكونن من المشركين . « ولا تدع مع الله الها آخر ، لا اله الا هو ، كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون »

سورة العنكبوت

الربع الأول :

الناس امام الدعوات الجديدة

(*) من شأن كل دعوة جديدة ، دينية كانت أم سياسية ، أن تجد لها فى الجماعة البشرية من يتقبلها ويؤمن بها ، ويضحى بنفسه وماله فى سبيل نشرها وتركيزها واقناع الناس بها ، وان تجد بازاء من يؤمن بها من ينكرها ويكفر بها ، ويسعى جهده فى ظاهره وباطنه فى مكافحتها والقضاء عليها. فريقان : مؤمن قوى الايمان واضحه ، وكافر شديد الكفر واضحه . فاذا ما امتدت الدعوة ، وظهر سلطانها ، اتصل بأهلها طمعا أو رهبا دون أن يؤمن بها فريق ثالث تزيا بزيهم فيصلى مثلا كما يصلون ، ويصوم كما يصومون ما دام فى صفوفهم ، وما دام فى امن من التكاليف الشاقة والتضحيات النفسية والمالية ، واذا ترك هذا الصنف ، فى تردده بين ايمانه الظاهر وكفره الباطن ، كان معول هدم فى جماعة المؤمنين ، وكان أشد فتكا بهم وبدعوتهم من أعدائهم البارزين

لهذا اقتضت حكمة الحكيم أن يكون له فى كل دعوة اصلاحية من أنواع التكاليف ما يمتحن به المرء فيعرف منه الصدق ان كان صادقا ، ويعرف منه الكذب ان كان كاذبا ، وبذلك تطهر صفوف المؤمنين من عناصر التخذيل ، ويعرف خبيثهم من طيبهم ، وقد عنى القرآن كثيرا بلفت الأنظار الى فائدة الابتلاء بالتكاليف الشاقة من صنوف الجهاد ، وأنواع البذل فى سبيل الله : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله »

(*) الآيات من ١ الى نهاية الآية ٢٥ من سورة العنكبوت

الابتلاء سنة فى الاولين والاخرين

وفى هذا الشأن نزلت سورة العنكبوت ، وأرشدت الى ان الابتلاء سنة فى الأولين ، وماضية فى الآخرين : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »

عناية الله بالمؤمنين

وفى شد عزائم الصادقين المخلصين الذين يتقبلون فى جد البلايا والمحن ترشدهم الآيات الى أن الباطل ، مهما قويت أنصاره ، وعلا زبده ، مآله الاضمحلال والزوال ، ولا بد أن يقع دعاته تحت سلطان الله القوى القاهر ، الذى لا مفر منه : « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون »

وتشد الآيات ازرهم مرة أخرى فترشدهم الى أن الله لم يمتحنهم بالشدائد حبا فى تعذيبهم ، أو لتحصيل كمال ينقصه ، وانما يمتحنهم بالشدائد تقوية لايمانهم ، وتثبيتا لسلطانهم ، وتعظيما لأجرهم عند الله : « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون » ..

حقان محفوظان

وكثيرا ما يصدم الانسان ، فى عاطفة ايمانه ، عاطفة أبوة تدعوه الى الكفر ، أو تدعوه الى ترك الجهاد فى سبيل الدعوة التى يؤمن بها ، ولربما أضعفت تلك الصدمة صبر المؤمن ، وسولت له ترك ايمانه أو الاخلال بواجبه ، وفى حل هذا الاشكال ترسم السورة طريق الخلاص فتحفظ للأبوة حقها الذى لا يطغى على حق الله ، وهو الاحسان اليها ، وتحفظ

لله حقه ، فلا تطاع الأبوة فى الاشراك به : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما »

من اوصاف المنافقين

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك الى بعض شـئون المنـافقين ، فتذكر انهم يضـعفون عن تحمـل ايذاء الكفار لهم ، ويجعلونه كعذاب الله مخشيا مرهوبا ، ولا يقدرون على دفعـه ، وبذلك يتزلزل ايمانهم ، وتضـعف مقاومتهم . وتذكر أيضا أنهم لا يظهرون فى صفوف المؤمنين الا حين تمام النصر والغلب : « ولئن جاء نصر ربك ليقولن انا كنا معكم »

وقد كان من صـور تغرير الكافرين بضعاف الايمان أنهم يتكفلون لهم بخطاياهم ، وتحمل تبعات كفرهم ان كان هناك يوم للجزاء والحساب ، وقد عهدنا ان عناصر الفساد تغرى ضعفاء القلوب بالآمال الكاذبة اذا استقاموا معهم وعاونوهم فيما يريدون من شر وفساد . والسورة ترشد الى هذا النوع من الخداع ، وتظهر الحقيقة جلية ناصعة : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ، وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء ، انهم لكاذبون »

ابتلاء السابقين

ثم تعود الآيات فترشد بالأسلوب التاريخى الى أن الابتلاء ليس شأنا خاصا بمحمد وأمته ، وانما هو شأن عام ، تقلب فيه نوح وقومه ، وتقلب فيه ابراهيم وشيعته حتى قيل : « اقتلوه أو حرقوه » فأنجاه الله كما أنجى المؤمنين قبله ..

ولا يفوت الآيات أن تقرع أسماع المكيين أثناء هذا القصص بالتبكيت والسخرية على ما اتخذوا من دون الله أوثانا لايملكون لهم رزقا ، وتأمرهم بالنظر فيمـا خلق الله .. وبالسير فى الأرض ليعلمـوا آثار قـدرته .. وليؤمنوا بأنه رب النشأتين : الأولى والآخرة ، وانه على كل شىء قدير :

« وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير »

الربع الثانى :

عاقبة صبر ابراهيم

(*) وفيه بيان عاقبة الصبر الذى اعتصم به ابراهيم فى الدعوة الى الله وفيما وجهه اليه قومه من كيد وايذاء ، قد كان منها انه اكتسب قوة من عشيرته كان لها أثرها الواضح المستمر فى الدعوة الى الله ، وهو ابن أخيه لوط ، ومنها ان الله أعزه بالهجرة التى مكنت له فى القيام بدعوته ، ومنها ان الله أكرمه بذرية صالحة تنسج على منواله ، وتسير فى طريقه وتفتح للناس طريق الهدى والرشاد ، وبذلك خلد ذكره ، وامتلأت جميع القلوب بمكانته : « فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى ، انه هو العزيز الحكيم ، ووهبنا له اسحاق ويعقوب ، وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين »

لوط وقومه

وتسير الآيات فى تصوير ابتلاء الله لعباده المؤمنين ، والتنويه بشأن جهادهم وصبرهم على الكيد والأذى ، وما كان لهم من حسن العاقبة فتذكر لوطا وما قاساه فى دعوة قومه الى التطهير من فاحشتهم التى شذوا بها عن الفطرة ، وأفسدوا بها خلق الله حتى ضاق صدره ولم يجد ملجأ سوى الاستنصار بربه : « رب انصرنى على القوم المفسدين » فسمع الله نداءه ، وبعث اليه بجند الانقاذ ومدد النصر : « ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم ، وضاق بهم ذرعا ، وقالوا لا تخف ولا تحزن ، انا منجوك

* الايات من ٢٦ الى نهاية الاية ٤٥ من سورة العنكبوت

وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين ، انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون »

عناصر الشر التاريخية

وتشير الآيات فى التذكير بأهل البغى والعناد ، فتذكر مدين وتكذيبهم لشعيب ، وتذكر عادا وثمود وما كان منهم لهود وصالح ، ثم تذكر قارون وفرعون وهامان واستكبارهم فى الأرض وثلاثتهم من عناصر الشر التاريخية ، وقد شرحت سورة القصص السابقة علوهم فى الأرض ، وبغيهم على عباد الله

ثم تضع الآيات أصابع المكيين ، ومن يتخذ سبيلهم فى محاربة الحق ، على حروف المعاقبة التى حلت بهم ، وطوقتهم بألوان من عذاب الله : « فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »

عظة الحاضر ..

واذا كانت سنة الله فى أخذ الظالمين واحدة ، فنحن فى عصرنا هذا نرى ونسمع عن الرياح الحاصبة تقتلع الأشجار وتنزل بشاهقات العمائر، وعن الصيحات تخلع القلوب ، وتستلب الأرواح من الأشباح ، وعن البراكين تنفجر وتلتهم نارها القرى والمدن ، وعن الأرض تتفكك أوصالها وتغور طبقاتها ، وتصبح مقبرة لمن عليها ، وعن الفيضانات ، وقد فار تنورها ، وأتت على كل شىء من الحضارات .. كل ذلك نراه ، ويقف الجبارون أمامه حيارى ، ثم لايلبثون أن يعودوا فيعملوا جهدهم فى اختراع المدمرات من نفاثات وذريات بغيا من الانسان على أخيه الانسان . وكان جديرا بهم اذا كانوا أرباب دين وايمان أن يبذلوا جهدهم فى وقاية خلق الله من عذاب الله القاهر بالسلم العام ، واقامة العدل ، والكف عن المظالم ..

اوهن البيوت

وبعد أن تسبح السورة هذا السبح الطويل فى سنة الابتلاء ، ومصير المكذبين الذين يفتنون الناس عن الحق ، تتجه الى المكيين ، فتصور لهم ضعف الملجأ الذى اعتصموا به ، وهو الأوثان ، عن أن يدفع عنهم كيد الله وانتقامه وتجعل مثلهم ، فى اتخاذهم اياها ، كمثل العنكبوت فى اتخاذها بيتا من تلكم الخيوط الواهية الضعيفة التى تنسجها ، فلا تدفع عنها حرا ولا بردا ، ولا تحفظها من يد تمتد اليها ، ولا ريح يهب عليها ، فكذلك ولاية الأوثان لهؤلاء ، ولاية لا تسوق اليهم خيرا ، ولا تدفع عنهم شرا : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون »

مثل يأخذ بقلوب المؤمنين ، ويريهم شاسع الفرق بين من يتخذ الجاهل — الذى لا يقدر — وليا من دون الله ، يعتمد عليه ويستنصره ، وبين من يتخذ المحيط بكل شىء — القادر على كل شىء — وليا يعبده ، ولا يعبد سواه : « ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم » « خلق الله السموات والأرض بالحق ، ان فى ذلك لآية للمؤمنين »

ثم تتجه الآيات الى أهل الايمان الحق فى شخص رسولهم ، وترسم لهم طريق العصمة من التردى فى هاوية هؤلاء الضالين المكذبين ، فتأمر بتلاوة الكتاب ، والانتفاع بهديه وارشاده ، وقصصه وأخلاقه ، وأحكامه ودلائله ..

ثم توصى على وجه خاص بالصلاة واقامتها ، فهى المعراج القوى الذى يصعد به المؤمن الى ربه ، وهى العدة التى يجاهد بها المؤمن نفسه وهواه ، وهى النور الذى يرى به عظمة مولاه ، وبه يراقبه فى سره ونجواه : « اتل ما أوحى اليك من الكتاب ، وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون »

سورة غافر

الربع الثالث :

(*) هذا هو الربع الثالث من سورة غافر ، وقد بدأها الله بجملة من صفاته ، ذات الجلال والجمال ، وكان فى مقدمة تلك الصفات صفة المغفرة التى يفتح بها للضالين المكذبين باب الرجوع اليه : « غافر الذنب وقابل التوب» . ولهذا البدء سميت بسورة غافر. وتسمى أيضا بسورة المؤمن ، لأنها انفردت ــ وهى تذكر بموقف المبطلين من قوم موسىعليه السلام ــ بذكر نصيحة مؤمن من آل فرعون ، قيضه الله للحق الذى يدعو اليه موسى من بيئة الكفر والعناد ، وأخذ يلقى عليهم مواعظه التى من شأنها أن تستل من قلوبهم محاربة الحق ، والاستكبار عن قبوله . حذرهم تنفيذ ما عزموا عليه من قتل موسى ، وأنذرهم عاقبة استمرارهم فى الطغيان ، وضرب لهم فى ذلك الأمثال بمصائر المكذبين قبلهم . كما خوفهم عذاب الآخرة الذى سينالهم يوم الجزاء الذى لا عاصم فيه من أمر الله ، ودعاهم الى اتباع الحق ، وتلبية الهدى والرشاد ، وأنكر عليهم تعلقهم بالدنيا الزائلة ، وبين لهم ان العاقل يجب أن يربط نفسه بالباقى الدائم ، لا بالمتاع الفانى : « يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع ، وان الآخرة هى دار القرار »

وكان آخر نداء وجهه اليهم انكاره عليهم ــ بعد أن تبين له الحق ودعاهم الى النجاة ــ أن يدعوه الى ترك ذلك الحق ، وأن يدخل فى باطلهم : « ويا قوم مالى أدعوكم الى النجاة ، وتدعوننى الى النار » .

(*) الآيات من ٤٦ الى نهاية الآية ٦٥ من سورة غافر

ويشرح لهم ذلك بقوله : « تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار »

وأخيرا ، وبعد أن يبذل فى نصحهم أقصى الجهد البشرى ، أعلنهم بكلمة الواثق من عقيدته ، الحريص على خير أمته ، المضحى بنفسه فى سبيل الحق الذى يدعو اليه :

« فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد » . وكانت عاقبته أن حفظه الله ورعاه ، وعاقبتهم أن نزل بهم الكيد والبلاء : « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب »

العبرة من القصة

وعبرتنا من هذه القصة أمران : أحدهما ان الحق ، مهما تكتل على اخفائه ورفضه أعوان الباطل ، لابد أن يقيض الله له من بيئة المبطلين أنفسهم من يؤمن به ، ويغار عليه ، ويضحى بنفسه وراحته فى سبيله حتى يظهره الله ..

وهكذا كان حق محمد ، وباطل المشركين ، وهكذا شأن كل دعوة الى الحق أمام المبطلين فى كل عصر ، وفى كل زمان

ثانيهما : ان على من تبين له الحق وآمن به أن يبذل غاية وسعه فى دعوة قومه اليه ، حتى اذا أيس منهم وأيقن أن لا فائدة من دعوته أياهم اعتزلهم وما يعبدون من باطل ، وعندئذ يتولى الله أمرهم ، ويوقع بهم شديد العقاب : « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » . « فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون »

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك ، وتصور للمبطلين موقف أتباعهم من متبوعيهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين ، كما تصور التجاء الجميع الى جنود العذاب : « خزنة جهنم » يلتمسون منهم دعوة الله الى تخفيفه ، فلا يكون الجواب سوى تسجيل الخزى والعذاب عليهم ، وتبكيتهم على

انكار الحق بعـــد أن قامت عليهم حججه ودلائله : « أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟.. قالوا : بلى . قالوا : فادعوا ، وما دعاء الكافرين الا فى ضلال »

ثم تضمن الآيات لدعاة الحق النصر والتأييد وتأمرهم بالتزام الصبر والتمسك بحبل الله فى سبيل الدعوة اليه ، وتؤكد لهم ان معارضـــة المبطلين لم تكن ناشـــئة عن برهان ، وانما هى أثر لكبر ملأ قلوبهم ، وستضمحل قوتهم ببركة الاعتصـــام بالله : « فاصـــبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك وســبح بحمد ربك بالعشى والابكار » . « ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ان فى صدورهم الأكبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله ، انه هو السميع البصير »

ثم تلفت الآيات الى آثار قدرة الله فى الكون ، فتذكر نعمتـــه على العباد بالليل الذى فيه يسكنون ، وبالنهار الذى فيه ينتشرون ، وبالأرض التى عليها يقرون ، ومنهـــا يرزقون ، وبالسماء التى بمائها ينتفعون ، وبنجومها يهتدون ، ثم تبرز لهم نتيجة كل ذلك التى هى دعوة الحق : « ذلك الله ربكم فتبارك الله رب العالمين . هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين »

الربع الرابع :

(*) هذا هو الربع الرابع والأخير من سورة غافر ، وقد ختم الربع السابق بجملة من صفات الجلال والعظمة ، تدعو الى افراد الله سبحانه بالعبادة والتقديس ، والاتجاه اليه وحـــده بالحمد والثناء على ربوبيتـــه العامة للعالم ، وتحول بين الانسان المدرك لآثار هذه الربوبية ، وبين الخضوع لغيره سبحانه ، وتحمله على تقرير الحق فى الربوبية والعبادة فى نفسه ، وفى عمله ، وفى دعوته : « قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى ، وأمرت أن أسلم لرب العالمين »

(*) الآيات من ٦٦ الى آخر سورة غافر

الله الخالق

ثم تعود الآيات الى تركيز العقيدة عن طريق لفت الأنظار الى جملة من الأدلة النفسية التى يدركها الانسان فى كيفية خلقه وفى الأطوار التى مرت به : «هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ، ولعلكم تعقلون »

شانه كن فيكون

هذه الأطوار ترشد بأوضح بيان الى أن الذى تولاها ، ودرج بالانسان فيها : « هو الذى يحيى ويميت » والى أنه صاحب الأمر النافذ الذى لايعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء « فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » وهـذا شأنه لا يتغير : نراه فى كتلة العالم ، ثم نراه فى النبات ، وفى الحيوان ، وفى الانسان ، وهو شأنه فى الحال ، وشأنه فى المآل ، يوجد « بكن » ويميت « بكن » . « وكن فيكون » شأنه الذاتى لا يتخلف ولا يزول . واذا كان شأنه « كن فيكون » فالى أى جانب يذهب هؤلاء الذين ينكرون حقه الذى يغار عليه ، والذى أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ؟.. ان حجج الحق قد طوقتهم ، وأخذت عليهم جميع المسالك ، ولم تجعل لهم سوى مسلك واحد سيعلمونه حينما توضع الأغلال والسلاسل فى أعناقهم ويسحبون فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون ، ثم يقال لهم : ان ذلكم الذى أنتم فيه « بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون ، أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين »

وبعد أن تصور الآيات مصير المجادلين بالباطل ، هذا التصوير الذى ينزع من الصدور قلوبها ، تعود فتأمر أهل الحق بالصبر والثبات : « فاصبر ان وعد الله حق » وتؤكد لهم أن مرد المعاندين الى الله سواء عجل لهم العذاب أم أخره : « فاما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فالينا يرجعون »

ثم تلفت الأنظار الى أن شأن دعاة الحق مع المعارضين هو شأن المرسلين السابقين : أوذوا فى سبيل الله وصبروا : « وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله فاذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون »

ثم تأخذ فى التذكير بنعم الله فيما خلق لهم من انعام ينتفعون بألبانها ونسلها . وفيما هيأ لهم من سفن تحملهم وتحمل أمتعتهم الى آفاق غير آفاقهم ، ثم توقظ فيهم ضمير الحق : « ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون »

ثم تذكر الآيات بسنة الله مع أسلافهم الذين أنكروا الحق ، وكانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا عليه من قوة ، وما كانوا فيه من كثرة ، بل حاق بهم ما كانوا به يستهزئون : « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون »

واذا كانت عوامل الفساد ، وعناصر الشر ، ومظاهر الطغيان ، وسنة الله التى يأخذ بها الطغاة واحدة فى كل العصور ، فليحذر هؤلاء الطغاة ، الذين يسخرون ما أنعم الله به عليهم من علم ، وقوة ، ومخترعات فى استعباد خلق الله واستعمار أوطانهم ، فليحذروا غضبة الله للحق ، وغيرته على عباده ، فتلك سنته ، ولن تجد لسنته تبديلا

سورة فُصّلت

الربع الأول :

(*) سورة فصلت ، وتعرف بسورة السجدة ، هي السورة الثانية من سور سبع بدئت بحرفى « حا ميم » وعرفت لذلك فى القرآن الكريم باسم الحواميم ، وقد نزلت مرتبة متتالية ، ووضعت فى المصحف كما نزلت ، وهى كلها تؤكد ان القرآن تنزيل من الله الجامع لصفات الجلال والجمال ، من العزة والحكمة والعلم والرحمة : « تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » . « تنزيل من الرحمن الرحيم » . « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم »

القرآن وحى الله الى رسوله

ومعنى هذا ان القرآن ليس ـ كما يزعم المبطلون ـ من سحر الكهان ، ولا من أساطير الأولين ، ولا من مفتريات محمد ، ولا من تعليم بشر ، وانما هو وحى من الله أنزله على رسوله ، يقرر به أصول دينه من الايمان بوحدانيته ، والايمان بالوحى والرسالة ، والايمان بالبعث والجزاء ، وقد لفتت جميعها فى سبيل ذلك الى آثار الله ونعمه فى الأنفس والآفاق الدالة على قدرته النافذة ، وعلمه المحيط ، وحكمته البالغة ، كما أنذرت ورغبت . أنذرت بالعذاب الذى حل بالأمم التى كذبت رسلها ، وبالعذاب الذى أعد لهم يوم البعث والجزاء ، ورغبت بالحياة الطيبة فى الدنيا ، وبالنعيم الدائم فى الآخرة ، وكثيرا ما تضمنت تحليل نفسية

(*) الآيات من ١ الى نهاية الآية ٢٤ من سورة فصلت

المكذبين ، وصورت اعراضهم ، وجنايتهم على استعدادهم لسماع الحق والحكمة ، تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتهدئة لنفسه ، ونفوس أصحابه المجاهدين

عناد

وها هى ذى سورة فصلت ، قد وضحت كثيرا من مواقفهم أمام الحق الذى يدعوهم اليه ، وكان من أبرز ما فصلته تصوير اعراضهم عنه ، وشدة نفورهم منه بقولهم : « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون » . يصفون أنفسهم بأن قلوبهم فى أغطية محكمة فلا ينفذ اليها شعاع من الدعوة ، وبأن آذانهم فيها وقر وثقل ، فهى لا تحمل الى قلوبهم صوتا من الحق ، وبأن بينهم وبين الداعى ـ محمد عليه السلام ـ حجابا مانعا من التفاهم وتبادل الرأى . والمعنى فى ذلك كله انهم طمسوا استعدادهم ، وطمسوا على أنفسهم سبل الحق . وتصوير اعراضهم بهذا النحو يطابق تماما تصويره بقوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » . وان اختلف القصد والهدف ، فالقصد فى آية الختم بأنهم بأهوائهم أعرضوا عن الحق ، وزين لهم الشيطان ذلك الاعراض حتى ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . والقصد فى آية الأكنة ، انهم يحقرون شأن الدعوة ، ويعلنون انها ليست مما ستحق أن تفتح له القلوب أو تسمع له الآذان ، أو ترفع بينهم وبين صاحبها الحوائل

أوامر الله لنبيه

أمام هذا التصوير ، الذى يصورون به اعراضهم عن الدعوة ، يأمر الله نبيه أن يقرر لهم أولا مهمته ، وانه ليس الا بشرا يوحى اليه ، فيبشرهم أن آمنوا ، وينذرهم ان أعرضوا ، وليس عليه شىء من تبعة اعراضهم وتكذيبهم : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين »

وتأمره ثانيا : أن يقرر لهم ان اعراضهم عن دعوة الحق ليس الا كفرا بما شهدت بوحدانيته وقدرته ظواهر التكوين وأطواره فى الأرض وما أودع فيها من جبال وأقوات ، وفى السماء وما نظمت عليه من كواكب ومصابيح : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين » . فان هم استعملوا عقولهم ، وآمنوا بما تنطق به هذه الظواهر فقد أفلحوا وسعدوا ، وان هم أعرضوا : « فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود »

وتأخذ الآيات فى بيان ما كان لهؤلاء من قوة واستكبار فى الأرض ، ومع ذلك لم تغن عنهم قوتهم ولا استكبارهم ، بل أخذهم الله بالعذاب الهون : « ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون »

وتأمره ثالثا : — بعد هذه المثلات الخالية — أن ينذرهم بما يصيرون اليه يوم القيامة ، يوم يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . يوم ينكرون على جوارحهم — التى استخدموها فى الشر والفساد — أن تشهد عليهم بما أفسدوا ، فتقر لهم الجوارح ان الله ، الذى انطق كل شىء بوحدانيته ، قد أنطقها بجرائمهم ، وانهم كانوا بحالة من يظن أن الله تخفى عليه شئونه : « ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم ارداكم فأصبحتم من الخاسرين »

وهكذا تكون نهايتهم ، أجزعوا واستغاثوا ، أم صبروا فى ظل من رجاء العفو والمغفرة ؟.. « فان يصبروا فالنار مثوى لهم ، وان يستعتبوا فما هم من المعتبين »

الربع الثانى :

اخوان السوء

(*) صوّر الربع السابق اعراض المشركين عن الدعوة . وبيّن مصيرهم

(*) الآيات من ٢٥ الى نهاية الآية ٤٦ من سورة فصلت

يوم القيامة وما يلحقهم من الخزى والخسران . وفى هذا الربع ترشدهم الآيات الى أن هذا المصير السيء لم يكن أثرا لطبعهم على الضلال ، ولا اكراها لهم من الله عليه ، وانما هو أثر لتأثرهم باخوان السوء : الذين زينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من الأهواء والشهوات ، وعبرتنا فى ذلك ان الشر كثيرا ما يصيب الانسان من وقوعه تحت تأثير البيئة الفاسدة المحيطة به . فعلى العقلاء ان أرادوا حياة طيبة أن يتخيروا الأصدقاء ، وأن يطهروا مجتمعهم من عناصر الشر ، وبذور الفتن ، حتى لا يكون لها سلطان على قلوبهم

وكما صور الربع الأول اعراض المشركين عن الدعوة فى أنفسهم بقولهم : « قلوبنا فى أكنة » ، صوّر هذا الربع طريقتهم فى محاولة صرف الناس عنها : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . يحذرونهم عن الاستماع اليه ، والانصات له ، مخافة أن تصل الى قلوبهم حكمه السامية ، ويرسمون لهم أسلوب ذلك بما يخفى عليهم فضله : « والغوا فيه » : أطلقوا عليه ألسنتكم ، أشيعوا السخط عليه ، انشروا عنه الأباطيل .. وهذا شأن عرفه المضللون طريقا لاخفاء الحق فى كل زمان. يغمرونه بالأراجيف والمفتريات ، ويتتبعون أهله بالمقاطعة والتهريج أينما حلوا ، وأينما ارتحلوا . والله يتوعد المرجفين الذين يعملون على اخفاء الحق بالعذاب الشديد ، وسيكشف للتابعين افساد المتبوعين لهم : « ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين »

المؤمنون فى رعاية ربهم

ثم تشد الآيات ازر المؤمنين وتؤكد لهم انهم ـ بايمانهم واخلاصهم فى الدعوة ، واستقامتهم على حدودها ـ فى حماية الله ورعايته ، يقوى قلوبهم ويطرد عنهم بواعث الخوف والحزن ، ويمنحهم كل ما يطمئنهم ، ويبشرهم بالفوز والفلاح : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون»

ثم ترشدهم الى أنهم بدعوتهم الى الله فى منزلة لا يوجد فى حكم الله وقضائه أسمى منها : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » . كما ترشدهم الى ما يحفظ عليهم تلك المنزلة من تحلية النفس بالصبر والاحتمال ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، وتطهيرها من نزعات الشيطان التى يزل بها المؤمن عن مقتضى الايمان وتمنعه منزلة السمو بالدعوة الى الله : « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم »

بعض دلائل الوحدانية

ثم تعود الآيات فتلفت الأنظار الى بعض دلائل الوحدانيـــة فى علوى العالم وسفليه ، وان كل ما فى الكون خاضع لقدرته وسلطانه ، فلا يصح السجود لغيره مهما عظم : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن » وترشد الى ان العدول عن مقتضى هذه الأدلة انحراف عن الحق ، والحاد فى آيات الله ، وتتوعد هؤلاء الملحدين باطلاع الله على سرائرهم ، والعوامل التى دفعتهم الى هذا الالحاد : « ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير ، أم من يأتى آمنا يوم القيامة ، اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير »

تسلية

ثم تنتقل الآيات الى تهوين الأمر على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى سبيل ذلك ترشده الى ان موقف قومه منه هو موقف الأمم الماضية من اخوانه السابقين ، وما عليه الا أن يصبر كما صبروا : « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » فلا تسمع لمقترحاتهم ، ولا تهتم بكيدهم ، فهم قوم لا يثبتون على حال ، ولا يرضيهم الا الشهوات والأهواء ، ولقد أنزلنا عليهم قرآنا عربيا بلسانهم ، فيه التفصيل والبيان ، والحجة والبرهان ، فأعرضوا عنه وقالوا فى آذاننا وقر : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم

وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد »

ثم تختم الآيات بتقرير مبدأ الحكمة والعدالة فى المؤاخذة بالأعمال صالحها وسيئها ، وان نفسا لا تتحمل وزر أخرى : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد »

الربع الثامن :

(*) ومن أساليب القرآن فى الدعوة التهديد والانذار بأهوال الساعة وشدة العذاب فى الآخرة : وقد جاء ذلك فى عبارات مختلفة ، وعلى ألوان وأنحاء متعددة ، تصف الآيات مقدمات الساعة تارة ، وتصف الحشر تارة أخرى ، وتتحدث عن العذاب ثالثة ، وعن أحوال المكذبين مع شركائهم أو مع الحق رابعة ، وهكذا الى آخر ما نراه فى القرآن الكريم ، ومما جاء فى ذلك من سورتنا « ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون » . « ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون » . « فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين » . « أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ؟ »

وكان القوم يقابلون الحديث عن الساعة ، وعن عذاب الآخرة ، تارة بالانكار والتعجب من الاخبار به ويقولون : « ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » ، « ومن يحيى العظام وهى رميم » . وتارة بما يفيد انهم شاكون متحيرون : « ما ندرى ما الساعة ، ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » . وكثيرا ما كانوا يسألون عن وقتها ، ويستعجلون عذابها ، تهكما واستهزاء ، وكان القرآن فى كل هذه المواقف يجيبهم بالحجة الداحضة التى لا تدع مجالا للانكار ولا للشك ، وكان — فى سؤالهم عن الوقت — يرد عليهم بأن علمه مما استأثر الله به ، ولا يطلع عليه أحدا من خلقه ، ومن ذلك ما جاء فى هذا الربع : « اليه يرد

(*) الآيات من ٤٧ الى آخر السورة

علم الساعة » ، والعبارة واضحة فى ان علم الساعة لا يعلمه أحد سواه .
وقد ضمت الآية اليه بعض الأحداث الكونية التى تأخـذ حكمه ، وهم
بأنفسهم يعترفون بأنه لا يعلمها أحد سواه : « وما تخرج من ثمرات من
أكمامها (أوعيتها) وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه » . وقد جاء
ذلك المعنى فى كثير من الآيات : « ويقولون متى هـذا الوعد ان كنتم
صادقين » . « قل انما العلم عند الله وانما أنا نذير مبين » . « يسألونك
عن الساعة أيان مرساها ، قل انما علمها عند ربى »

الحكمة فى اخفاء الساعة

والحكمة فى اخفاء الساعة هى الحكمة فى اخفاء الآجال ، هى الحكمة
فى اخفاء الأحـداث والنوازل ، فان الانسان لو علم بها لخارت قواه ،
وانسد أمامه باب الأمل ، وحيل بينه وبين العمل ، وصار فى حالة تشبه
القهر والالجاء . وبعد أن أوضحت لهم الآيات شأن الساعة ، أخذت بهم
الى التذكير بما ينفعهم ، فذكرت لهم يوم ينادون : أين الشركاء الذين
كانوا يتخذونهم أولياء من دون الله ، وما يجيبون به عن هذا السؤال ،
يتبرءون منهم ، ويسجلون على أنفسهم أن أحدا منهم لم يشهد لهؤلاء
بالعبودية ، ولا بالولاية : « وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا
ما لهم من محيص » ، وهذا نوع من الحيرة والتردد ، يلازمهم فى الآخرة ،
كما كان يلازمهم فى الدنيا ..

الايمان مبعث الشكر والصبر

ومن هنـا تذكر الآيات ان الانسان الذى لم يعتصم بالايمان مبعث
الشكر على النعماء ، ومبعث الصبر على الضراء ، تتردد مواقفه فى الخير
والشر والنعمة والنقمة بين الفرح والبطر ، والهلع والجزع ، بين الالتجاء
الى ربه فى وقت الشدة ، ونسيانه وقت الرخاء ، بين الرضا عند الاكرام
والانعام ، واليأس والقنوط عند التقتير والابتلاء ، بين دعاء ربه واستغاثته

والاعراض عنه صلفا وكبرا ، وفى تلك الأحوال النفسية ، التى تحللها البشرية الحيوانية ، تقول سورتنا : « لا يسأم الانسان من دعاء الخير ، وان مسه الشر فيئوس قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى » . « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر فذو دعاء عريض » . وكثيرا ما أكد القرآن هذه النفسية التى يحملها القلب الذى لم يعتصم بالايمان بالله : « فلما نجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق » . « ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى ، انه لفرح فخور »

أما العـــلاج فهو ما جاء فى قوله تعالى : « الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » . وفى قوله : « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين »

ثم تختم السورة بأن انكارهم للحق قبل النظر والتفكير ـ وهو على الأقل يحتمل أن يكون من عند الله ـ ليس فى نظر العقلاء الا ضـــلالا وفسادا ليس بعدهما من ضلال ولا فساد : « أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ؟ »

وبأن الأدلة على حقية القرآن ، وانه من عند الله ، لا تقف عند هذا الحد فيما تجلى لهم من اسرار الكون وخصائصه ، وعجائب الله وتصاريفه ، بل ستتضح ، وسيرونها فترة بعد فترة ، وطورا بعد طور ، كلما تقدمت مدارك الانسان وخاض غمار الكون فعرف خواصه ، وسنن الله فيه ، فى الآفاق والأنفس : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » ، صنع ربك الشهيد على كل شىء وهم فى مرية من لقائه ، انه بكل شىء محيط

ســـورة الشــورى

الربع الأول :

(*) هذه هى السورة الثالثة من السور السبع ، التى عرفت فى القرآن الكريم باسم الحواميم ، وهى تشارك زميلاتها فى الهدف والمنهاج، فهى تؤكد ان القرآن ما هو الا تنزيل من الله الجامع لصـفات الجلال والجمال ، والذى خضعت له الكائنات « الله العزيز الحكيم » ، « وهو العلى العظيم » وانه ليس الا وحيـا أوحى به الله الى رسوله ، لينــذر الأقوام الذين فسدت فطرهم ، واتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم من دونه ، وهو الولى الذى لا ولى سواه : « وهو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير » ..

وأرشدت السورة مع هــذا كله الى أن وحى الله الى عبــاده حقيقة ثابتة ، أخذت حظهــا من الوجود بالنســبة لمحمد ، وبالنسبة لاخوانه السابقين ، فليس الوحى شأنا خاصــا به ، ولا هو بدعا من الرســل : « كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » . « وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » .

الوحى روح

ثم تصفه الوحى بأنه روح يحيى القلوب الميتة ، ويهدى الى صراط مستقيم ، وانه فضل من الله على محمد ، وان حالة محمد قاطعة فى ان القرآن ليس من عنده وانما هو من عند الله : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا

(*) الآيات من ١ الى آخر الآية ٢٦ من سورة الشورى

نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم »

ثم تقرر السورة ان الوحى من لوازم حكمة الله ، ومتناول قدرته التى ظهرت آثارها فى الخلق والرزق : « فاطر السموات والأرض » . « له مقاليد السموات والأرض »

وحدة دين الله

ثم تبرز السورة حقيقة ضل فيها الناس بغيا وعدوانا ، فذهب فريق الى انكارها ، وفريق الى الايمان بها لبعض الرسل دون بعض . تلك الحقيقة هى ان الدين الذى أوحى الله به الى محمد هو الدين الذىأوحى به الى نوح ، والى ابراهيم وموسى وعيسى ، ووصّاهم باقامته ودعوة الناس اليه ، وعدم التفرق فيه ، وقامت فيه حجة كل رسول على قومه ، ولكن الناس كبر عليهم ، حقدا وحسدا ، أن يؤمنوا بتلك الحقيقة المتحدة ، فأنكروها ، أو فرقوها ، وزعموا ان الأديان تتعدد بتعدد الرسل ، وان لكل دين أصولا وأتباعا ، وأخذوا باسم الدين يتحاربون ويتسافكون ، والدين منهم برىء ، والله من ورائهم محيط ، فدين الله واحد ، وانكاره من أحد الأنبياء انكار له من جميعهم ..

وقد عرض القرآن كثيرا فى مكيه ومدنيه لتقرير الوحدة الدينية ، وقرر الايمان بكل الرسل وبكل الكتب ، وجاءت فى سورتنا « الشورى » واضحة جلية : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه »

رسم منهاج الدعوة

ثم تتجه السورة بعد تقرير هذه الحقيقة الى الرسول عليه السلام ، واضع اللبنة الأخيرة من هذا البناء الالهى ، المكمل لشرائع الله ، على حسب استعداد خلق لله . تتجه اليه عليه الصلاة والسلام ، فترسم له

منهاجا للدعوة غاية فى القوة ، منهـاجا يزيد المؤمنين ايمانا على ايمان ، ويزيد المعاندين المغرقين رجسا على رجس ، منهاجا يتكون من عشر فقرات كانت عدته فى الهجرة ، وعدته فى الدعوة ، وعدته فى الوصول الى الغاية :

« فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعـدل بينكم ، الله ربنـا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، واليه المصير »

انتصار الحق

ثم تطمئن السورة بعد ذلك دعاة الحق ، الذين يلتزمون هذا المنهاج ، بأن معارضة الجاحدين لتلك الحقيقة ، المشوهين لها ــ بعد أن أخـذت الى القلوب الحية سبيلها ــ معارضة ضائعة فاشلة : « والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له ، حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد »

فالحق متى أخذ مكانا ما ، سرت روحه ، وانتشر نوره ، وسار بقوته حتى يعمل عمله فى النفوس دون حرب ولا نضال ، وهكذا انتشر الاسلام عن طريق السياحة ، وعن طريق التجارة ، وعن طريق الخبر ، دون حرب ولا نضال ، ولا يزال يغزو القلوب ، وتتفتح له الأفئدة دون اكراه أو الجاء ..

ثم أخذت الآيات فى تبكيتهم على انكار البعث ، واتخاذ غير الله أولياء مع ظهور الآيات والدلائل ، وتفتح لهم باب الرجاء فى العفو والمغفرة اذا هم أقبلوا عليه ، وخلعـوا أنفسهم مما هم فيه ، وآمنوا بما أنزل الله :

« وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون ، ويستجيب الذين آمنـوا وعملـوا الصالحات ويزيدهم من فضـله ، والكافرون لهم عذاب شديد » ..

الربع الثانى :

المؤمنون لا تفتنهم الدنيا

(*) جاء فى الربع السابق ، ان الله يجيب حاجة الذين آمنوا ويزيدهم من فضله وان للكافرين عذابا شديدا ، ومع ذلك فقد كان الكافرون فى بسطة من الرزق وسعة من العيش ، والمؤمنون على عكس ذلك ، وقد يكون هذا هو المشاهد فى جل الأزمان ان لم يكن فى كلها ..

وفى هذا الربع تكشف الآيات عن شأن فى الانسان ، يرجع هذا الشأن الى انه اذا كثر ماله وجاهه شغل به عن مقومات نفسه وروحه ، وكثيرا ما يندفع الى البطر والطغيان ، ويتعرض بذلك الى عاقبة الطغاة من الحرمان المطلق ، والعذاب الأليم ، فكان من الحكمة الوقوف بالمؤمن ـ فيما يجر الى الطغيان ـ عند حد القصد والاعتدال ، وهو فيما يقوم بالحاجة ، ويحقق الكمال الذى لايؤدى الى الطغيان

حكمة فى بسط الرزق وقبضه

ومن هنا نرى ان المؤمنين ، فى الأعم الأغلب ، أقل من غيرهم فى متعة الحياة الدنيا وزينتها ، رحمة بهم وحرصا عليهم ولا كذلك الذين جحدت قلوبهم ، واستولت الدنيا على نفوسهم : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا ، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين »

بهذا طمأن الله المؤمنين ، قرر انه لو بسط الرزق لهم ، كما بسط لغيرهم ، لمالوا الى الشهوات وانحرفوا عن الطريق المستقيم ، وهو لذلك يمد اليهم يده بالقدر الذى يعلم انه يقوم بحاجتهم وعزتهم ولا يطغيهم ،

(*) الآيات من ٢٧ الى آخر السورة

وليس ذلك عجزا عن أن يمنحهم كما يمنح غيرهم ، ولا بخلا عليهم بما لم يبخل به على غيرهم فهو القادر على العطاء لغير حد ، وهو الذى بيده أسباب الرزق وهو الرءوف الرحيم بالمؤمنين ، فهو الذى ينزل الغيث ، وهو الذى خلق السموات والأرض وسخرها للانسان ، وبث فيهما من كل دابة ، وهو الذى وفقهم الى صنع السفن واجرائها فى البحار ، وكل ذلك ليس الا متاع الحياة الدنيا ، لا يجب أن يقف عنده للمؤمنين . وانما الذى يحبه لهم هو المتاع الباقى الذى لا ينفد ، والذى لا يحصل عليه الا من جمع خلال الخير ، ولم يربط قلبه بالمتاع الزائل ، بل جعل همه الايمان بربه ، والتوكل عليه ، وتطهير باطنه وظاهره من الاثم والفواحش ، وانقياده النفسى لمولاه ، وأداء حقه بالصلاة الخاشعة ، وحق اخوانه الفقراء بالزكاة المطهرة . ثم عرف لنفسه عزة المؤمنين ، ولم يخضع لبغى ولا عدوان ، وانما انتصر لنفسه دون اسراف ولا طغيان : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » . « انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق »

أجملت الآيات بهذا صفات المرضيين عند الله ، وهى كلها صفات تتصل بتقوية الجانب المادى عن طريق القوة فى الجانب الروحى ، والذى يجدر التنبيه اليه ان الله ذكر بين تلك الصفات مبدأ « الشورى » . وأشار الى انه شأن المؤمنين : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون »

مكانة الشورى فى الاسلام

وضعه بين اقامة الصلاة والانفاق من الرزق فى سبيل الله ، وسميت السورة بسورة « الشورى » . وكان فى هذا وذاك أبلغ دلالة على مكانة الشورى فى شريعة القرآن ، وحسبها انها عنصر من عناصر الشخصية الايمانية الحقة ، نظمت فى عقد حياته طهارة القلب بالايمان والتوكل ، وطهارة الجوارح من الاثم والفواحش ، ومراقبة الله باقامة الصلاة والانفاق

فى سبيله ، والانتصار على البغى والعدوان ..

وبعنصر الشورى قضى الاسلام على عدو الانسانية الفاضلة ، وهو الاستبداد بالرأى واحتكار التشريع والتصريف والادارة ، وسلب أهل الرأى والكفايات حق ابداء رأيهم ، وآثار كفاياتهم . والقرآن لا يريد من الشورى — حين يضعها هذا الوضع — هذه الصورة الهزيلة التى يتواضع عليها أرباب البغى والاحتكار ، ويتخذونها ستارا للطغيان ، وسلب الحقوق ، وانما يريدها حقيقة نقية بريئة مما يكدر صفوها ، ويفقد خيرها ..

وبعد أن تعرض الآيات شيئا من خلال المجادلين فى آيات الله على النحو الذى عهد كثيرا فى القرآن عامة ، وفى هذه السور السبع خاصة ، توجه خطاب الدعوة والتحذير الى الناس جميعا : « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير» وتقرر للنبى صلى الله عليه وسلم ما به يهدأ روعه ، ويطمئن قلبه ، تقرر له مهمته ، وانه ليس عليه شىء من تبعة كفر الكافرين ، واعراض المعرضين . « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ»

ثم تؤكد له أخيرا ان الله قد جعل له القرآن نورا يهدى به الى صراط مستقيم . « صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض الا الى الله تصير الأمور »

سورة الملك

سورة الملك هى أول سورة من سور الجزء التاسع والعشرين من القرآن الكريم ، والجزء كله من القسم المكى الذى نزل فى أول أطوار الدعوة تقريرا لأصولها الثلاثة : عقيدة التوحيد ، وعقيدة الرسالة المحمدية ، وعقيدة البعث والجزاء

والله ذو الفضل العظيم

فى القرآن الكريم سورتان افتتحهما الله بتمجيده وتعظيمه ، وعبر عن ذلك بكلمة « تبارك » الدالة على الاختصاص بمعانى السمو المطلق فى الذات والصفات وبمعانى الكثرة والزيادة فى الفضل والاحسان ، ولفضل الله على عباده مظهران :

هذا الكون الذى خلقه وأبدعه وأودع فيه من الأسرار والمنافع ما تقف العقول دون اكتناهه والاحاطة به

وهذا الكتاب المتلو الذى ختم الله به رسالاته وأنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم ، يوجه به العقل البشرى الى معرفة الحق فىالوجود ، والى خوض غمار الكون والتنقيب عن أسراره ومنافعه

فهما كتابان :

كتاب صامت ينظر فيه الانسان فيعرف ويؤمن وينتفع ..

وكتاب متلو يقرؤه ويتدبره فينبهه الى ما فى كتاب الكون من آيات وعجائب ومستودعات هى للانسان مسخرات

وبهذين الكتابين ، الصامت والمتلو ، تجلت آثار ربوبيته للعالم ، مادية حسية ، وروحية عقلية ، وقد جاءت أول كلمة فى الكتاب المتلو « الحمد لله رب العالمين » تعبيرا صادقا عن هذه الحقيقة

وبهذين الكتابين كمل انعام الله على الانســان ، وعظم فضله واتسع احسانه ، وبهما هيىء له أن يصل الى كماله المادى عن طريق الانتفاع بما سخر له فى كتاب الكون ، والى كماله الروحى عن طريق ما أرشــد اليه كتاب الوحى فى العقيدة والسلوك

***

وقد أنزل ــ فى لفت الأنظار الى الكتاب المتلو ، وتقرير أنه الفاصل بين الحق والباطل ــ سورة الفرقان بكلمة التمجيد والتعظيم « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » . وأنزل ــ فى لفت الأنظار الى الكتاب الكونى مظهر الربوبية المادية ــ سورة الملك بتلك الكلمة نفسها « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » . ثم ساقت السورة جملة من مظاهر سلطانه وقدرته وتفرده بالملك والتدبير فى الانسان ، وفيما يحيط به من عالم علوى وسفلى ، فذكرت ان الموت والحياة يتواردان على الانسان ليظهر بهما اتجاهه ويعرف سلوكه ، وهل هو من الشاكرين لنعمة الحيــاة ، المقدرين لرهبة الموت ، أو هو من الكافرين بنعمة الحياة ، اللاهين عن عاقبة الموت « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » . وذكرت فى العالم العلوى ، انه خلق سبع سموات هى مدارات النجوم السيارة التى كانت معروفة للعالم اذ ذاك ، يعلو بعضها بعضا ، هى غاية فى الاحكام والاتقان ، لايرى فيها شىء من الخلل مهما تكرر النظر اليها ، وتردد البحث فيها ، كيف وهى خاضعة لناموس الهى ثابت ، لا تشذ ذرة فيها عن سلطانه الا اذا شاء واضعه وممسكه ..

نظام محكم

ثم أرشدت الى ما فى هذا النظام المحكم من وجوه المصالح التى تعود على العباد بالنفع العام ، فهى زينة بمصابيحها ، تتمتع النفس بجمالها ، وهى منار يهتدى به الانسان فى ظلمات البر والبحر ، وهى قذائف حق يرمى بها هؤلاء الشياطين ، الذين يعملون جهدهم على اخراج الناس من نور الايمان الى ظلمة الكفر « الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » . « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ، واعتدنا لهم عذاب السعير »

ثم تصف السورة هذه النار التى أعدت للمفسدين بجملة أوصاف ، تدل على شدتها ، وتغيظها منهم وحقدها عليهم ، كما تدل على تأنيب خزنتها لهم ، وتهكمهم بهم ، وعلى اعترافهم أنفسهم بذنوبهم ، واهمال عقولهم ، وزيادة فى فجيعتهم ترشد السورة بازاء ذلك الى فضل الله على المؤمنين ، واكرامه اياهم ، واقرأ فى ذلك : « اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور .. » الى آخر الآيات . فتذكر من مظاهر سلطانه ونعمته فى العالم السفلى تهيئة الأرض للسير والزراعة ، والتقلب فى جميع أرجائها ، ثم تنذرهم بالقدرة على تغيير تلك المعالم الأرضية بالخسف والزلازل ، وبارسال الرياح التى تقذفهم بالأحجار ، فتكدر عليهم صفو الحياة ..

***

ثم تلفت نظرهم الى آية فذة فيما يرون من الطير ، وهو يحلق فى الجو باسطا أجنحته ، ثم يقبضها وليس لها من حافظ سوى قدرة الله المنبعثة عن رحمته . « مايمسكهن الا الرحمن » . ثم ينكر عليهم ، أن يخطر فى نفوسهم بعد تلك الدلائل الواضحة ، أن لهم من دون الله من ينقذهم أو يرزقهم : « أم من هذا الذى يرزقكم ان أمسك رزقه ؟.. » ثم يحاكمهم الى العقل والضمير : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟.. »

نعم تستوجب الشكر

ثم بعد أن تمتن عليهم بنعمة الخلق ونعمة السمع والبصر والأفئـدة ، تلك النعم التى كفروا بها وطمسوها على أنفسهم ، فلم يدركوا بها حقا ، ولم يستعملوها فى أهدافها ، تختم السورة بذكر المبدأ والمعاد ، ذلكم المعاد الذى يستبعدونه ويستهزئون به كلما ذكر لهم ، ويقولون : « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ؟.. » ، وتلقن النبى صلى الله عليه وسلم حجته عليهم : « قل انما العلم عند الله ، وانما أنا نذير مبين » فلا تسألوا عن وقته فانه لا علم لى به ، وليس علمـه من مهمتى ، وانه واقع بكم لا محالة سترونه بأعينكم : « فلما رأوه زلفة (قريبا) سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون » ..

وأخيرا تقرر ألا طريق للنجاة سوى الايمان بالله والتوكل عليه ، فهو صاحب المنع والعطاء : « قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ، فستعلمون من هو فى ضلال مبين . قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم (مادة حياتكم) غورا (غائرا) فمن يأتيكم بماء معين ؟.. »

سورة القلم

(*) كلما كان الناس غرقى فى الشهوات والأهواء ، مسلمين أنفسهم للأوهام والأباطيل كانت دعوة الحق فى نظرهم هى دعوة الباطل ، ودعوة الخير هى دعوة الشر ، ودعوة الجنون . ومن هنا كان أول ما قوبل به النبى صلى الله عليه وسلم حينما دعا قومه الى توحيد الخالق ، ونبذ ما هم عليه من الفسوق وعبادة الأصنام : « انك لمجنون » والجنون عند أرباب الشهوات هو التزام جادة الحق والخضوع لواضح البرهان . والعقل عندهم هو مسايرتهم فيما نشئوا عليه وورثوه من الأهواء والخرافات ..

وقد نزلت سورة القلم فى فجر الوحى ، تكشف الغطاء عن أعينهم . وتبصرهم بحقيقة محمد وما يدعوهم اليه ، فلفتت الأنظار الى أن الذى اجتباه ربه وكرّمه وحباه بنعمة الحق والذكاء والفطنة ، ثم بنعمة النبوة والرسالة ، ثم بعظم الأجر على القيام بمهمته ، ثم كمله بالخلق الذى به يشهدون وله يعرفون ، محال أن يكون على ما يصفون

ثم لم تشأ أن ترسل تلك الحجة المقنعة بنفسها ارسالا ، بل أبرزتها فى اطار من القسم بأساس دعوته وهو العلم القاضى على جهالة النفوس وطغيانها ، وذكرته بأهم أدواته من القلم والكتابة وبذلك رجعت به الى أول ما أوحى الله به اليه : « اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » . ثم طمأنت الرسول بأنه سيرى بعينه ، ويرون هم

(*) سورة القلم

أيضا بأعينهم أى الفريقين قد زلّ عقله وحاد عن طريق الحكمة ، ووقع فى ضلال الجنون والفتنة ، وبذلك كله تبدأ السورة : « ن . والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون »

ثم تعود السورة وتؤكد للنبى فى آخرها ان اتهامهم اياه بالجنون لم يكن الا أثرا من آثار حقدهم عليه حينما سمعوا منه تلك الدعوة التى ستزلزل سلطانهم وتقضى على عزتهم التى تخيلوها ، وقد سيق هذا المعنى فى أسلوب يصور شدة حنقهم عليه : « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون » .. ثم تنبّه الى حقيقة القرآن وما يدعو اليه بما يدل على أن حقيّته غاية فى الوضوح والظهور ، وانه راسخ فى النفوس والفطر ، وما الدعوة الا تذكير وايقاظ : « وما هو الا ذكر للعالمين » . وبذلك تكافل آخر السورة مع أولها فى رد تلك الفرية واقتلاع جذورها بالواقع الصحيح

تحذير

وتتجه السورة فيما بين ذلك الى تحذيره صلى الله عليه وسلم من الميل اليهم واطاعتهم فيما يريدونه عليه . كانوا يساومونه بالمال والسلطان ان هو ترك دعوته ، فحذرته اطاعتهم على وجه عام ، ثم نفرته من اطاعتهم بخلال سيئة عرف بها بعض زعمائهم ، وتأباها طبيعته النقية الطاهرة : « فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون، ولا تطع كل حلاف ، مهين ، هماز ، مشاء بنميم ، مناع للخير ، معتد ، أثيم ، عتل ، بعد ذلك زنيم » . ثم تنبه الآيات الى أن سبب كفرهم هو طغيانهم بالمال والبنين ، واعتمادهم عليها ، واغترارهم بها فى عزتهم ، ثم تؤكد سوء عاقبتهم . وان الله سيشهر بهم ، ويفضح أمرهم ، ويلصق بهم علامة الذل والصغار بعلو سلطان الحق، وادالة سلطانهم : « سنسمه على الخرطوم »

ابتلاء بالمال والبنين

وتبين لهم ان الأموال والبنين لم تكن الا اختبارا يتبين منه صلاح النفوس وفسادها ، وفى سبيل ذلك تذكر لهم قصة أصحاب البستان « الجنة » الذين ضنوا بحق الفقراء فيها ، قالوا نحن به أحق وأولى ، واتفقوا على جنيها فى وقت مبكر غير الوقت الذى كان يعرفه الفقراء : « ولا يستثنون »

وبعد أن بيتوا النية على ذلك ، وذهبوا الى جنتهم ، وجدوها قد احترقت وسقطت ثمارها ، فوقعوا فى حيرة حتى ظنوا انهم ضلوا طريقها ، ثم تبين لهم الأمر ، وانها هى هى ولكن قد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فوقعوا فى اللوم وأدركوا انهم بنيتهم كانوا ظالمين : « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا ياويلنا انا كنا طاغين » . فعادوا الى ربهم ورجوا أن يغفر لهم ، وأن يبدلهم خيرا من جنتهم : « انا الى ربنا راغبون » . ثم تذيل القصة بأن سنة الله فى هؤلاء المستكبرين ، وفى كل أرباب النعم هى سنته فى أصحاب الجنة ، ان تداركوا خطأهم غفر الله لهم ، وان استمروا على طغيانهم فهذا جزاؤهم فى الدنيا : « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون »

زعم باطل

ومن عادة المفتونين بأموالهم زعمهم أن لأنفسهم مكانة عند الله أعظم من مكانة الفقراء الذين يهرعون الى استجابة الدعوة فتأخذ السورة فى تبكيتهم على هذا الزعم ، وتبين لهم انه زعم ليس لهم فيه مستند ، فلا الكتب نصت عليه ، ولا العقل يقضى به ، ولم يأخذوا به عند الله صكا ولا عهدا ، واذن فليس لهم من دونه أنصار يحفظونهم من امره ، يوم يشتد الكرب، ويكشف عن ساق « ويدعون الى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة أبصارهم ، ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون الى السجود وهم

سالمون » . ثم تخفف السورة وطأة تكذيبهم على النبى ، وتطلب منه أن يفوض أمرهم اليه سبحانه وترشده الى أن الانعام عليهم لم يكن لمكانتهم عنده ، وانما كان املاء واستدراجا ، ثم تأمره بالصبر على كيدهم وتحذره الانفعال النفسى مخافة أن يقع فيما وقع فيه أخوه يونس ، حينما غضب من قومه وتركهم فابتلاه الله بابتلاع الحوت اياه وفى ذلك تقول السورة :

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » . « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » . « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم »

عـظة

أما بعد :

فجدير بأرباب الشهوات والأهواء ، الحاقدين على الحق وأهله ، أن يطهروا قلوبهم من بواعث الحقـد ومكايدة الحق ، احتفاظا بانسانيتهم وحرصا على مزاياهم التى كرمهم الله بها

وجدير بأرباب الأموال الذين يضنون بحق الفقراء فيها وقد أنعم الله بها عليهم — أن يتأملوا قصة أصحاب الجنة فيخشوا غيرة الله على عباده الفقراء ..

وجدير بأرباب الدعوة الى الحق ، الذين يعملون على الخير والصلاح ، ألا يقتربوا من المبطلين أرباب الفساد والخلق السيىء الذى عنعون به الخير ويفسدون به ما بين الناس من روابط المحبة والأخاء ، عليهم أن ينشئوا أبناءهم على خلال الخير والفضيلة . وجدير بهم أن يتذرعوا فى كل ذلك بالصبر والالتجاء الى الله حتى يسعدوا أنفسهم ومجتمعهم بدعوة الخير والفضيلة ، ويركزوا الحق الذى رضيه الله لعباده وبيّنه فى كتبه ، وكلف رسله بتبليغه والدعوة اليه . ونسأل الله التوفيق والهداية ..

سورة الحاقة

(*) وجهت سورة الملك أنظار القوم الى بعض ما فى الكون من دلائل الوحدانية وآيات الحكمة والعلم والقدرة ، وكشفت سورة القلم عن نعمة الله على محمد ، وعن بطلان التهمة التى وجهها اليه القوم حقدا وغيظا ، وهى تهمة الجنون ، وحذرته أن يلين لهم ، أو أن يسارع اليه الغضب فيكون كأخيه يونس بن متى ، وضربت لهم الأمثال فى عاقبة الاغترار بالأموال والبنين ، ولم يفتها أن تعرض للتهديدات بالبعث ، ودار الجزاء

ثم تجىء سورة الحاقة فتضع الحد الفاصل بين زعمهم وبين دعوة الرسول فيما يختص بالقيامة ، فتبدأ بتفخيمها وتعظيم شأنها ، وأنها بلغت فى عظم الشأن أن يقف الانسان أمام انبائها وأهوالها مبهوتا متسائلا ، بل بلغت مبلغا يتسامى عن الادراك والاحاطة « الحاقة » ما هى؟ وما أدراك ما هى ؟ استفهام يملأ النفس روعة ورعبا ، ويقف بها على شاطىء بحر متلاطم الأمواج ، لا يدرك البصر أطرافه ، فيقف حائرا مضطربا لا يملك سوى أن يقول ما هذا ؟ ما هذا ؟

معنى الحاقة

وكلمة « الحاقة » ككلمات القارعة والواقعة ، والطامة ، والصاخة ، أعلام بالغلبة على القيامة ، ولكل منها دلالة على معنى من معانيها ، وأثر من آثارها . فهى حاقة فى ذاتها ، وهى حاقة لانبائها ، وهى بمقوماتها وأحداثها تقرع القلوب وتصك الأسماع ، وهى التى بعد هذا كله كان انكار الأمم السابقة لها سببا فى فسادهم وطغيانهم ، وفى التنكيل بهم على

(*) سورة الحاقة

وجه لا تزال آثاره وأخباره تنبىء بما أصابهم من الهلاك والدمار ، فهذه ثمود ، وتلك عاد ، وهذا فرعون ومن قبله من الطغاة ، وهذه «المؤتفكات» القرى التى أؤتفكت وانقلبت على أهلهــا بفعلتهم الشنعاء : قرى قوم لوط . هؤلاء جميعا أنكروها ولم يعملوا على حســابها ، فاندفعــوا فى طغيانهم واثمهم ، فأتى على الكل ما طوى صفحتهم من الوجود ، وجعلهم أثرا من بعد عين « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية »

وقد ذكرت السورة بالطوفان الذى أخذ قوم نوح ، مصرحة بجانب النعمة فيه على العرب وهى حمل أصولهم فى السفينة « انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية » . ومعنى هذا انه كان جديرا بالعرب ــ وهم أبناء الذين سلموا من الطوفان ــ أن يذكروا تلك النعمــة ، ويدعوا العناد والتكذيب : « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية »

انذار

وبعد أن فخمت السورة من شأن الساعة ما فخمت ، وقدمت للقوم النذر التاريخية التى أصابت المكذبين بها ، أخذت تصور أحداثها ، من مقدماتها الى نهايتها ، فصورت بالنفخ فى الصور انحلال النواميس التى تمسك العالم علويه وسفليه « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » . ثم تصور عظمة السلطان الالهى بمثل ما يعهده الناس فى سلطان القادرين الأقوياء : « والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » وحسبنا أن نؤمن بما تدل عليه العبارة من عظم السلطان على حسب ما يعهــده الناس فى دنياهم . أما كيف تقف الملائكة على الأرجاء ، أو كيف يحمل العرش ، أو من هؤلاء الثمانية ؟ أو ما حكمة هذا العدد ؟ فهذا كله مما لا ينبغى أن نخوض فى حقيقته ، وانما هو روعة القضاء الالهى ، والحكمة القاهرة ..

جزاء المؤمن

ثم تشير الآيات الى العرض على دار القضاء التى تحدد فيها المسئوليات : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » . ثم تشير الى الحكم ، فيصدر لفريق بالنجاة ، وعلى آخر بالادانة ، وان الأولين يسلمون صك البراءة بأسلوب التكريم : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ، انى ظننت أنى ملاق حسابيه » . وأن الآخرين يسلمون صك الادانة — على العكس — بالاهانة ، معترفين بعملهم الكاذب وغرورهم الفاسد : « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : يا ليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، يا ليتها كانت القاضية ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه » . وبعد أن يصدر الحكم يجىء دور التنفيذ فيكون المؤمنون « فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية »

جزاء المكذب

أما المكذب المجرم فيقال للزبانية : « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . ثم تبرز الآيات حيثية الحكم على هذا المجرم : « انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » . وحسب المسكين أن يكون اهمال أمره وعدم الحض على اطعامه عديلا فى كتاب الله وقضائه للكفر بالله

وبعد أن يتم تصوير مراحل القضاء الالهى فى الفصل بين المؤمنين والمكذبين تنتقل السورة الى ما يقرر الحق فى النفوس ، وتبرز قسم الله — الذى ليس فى حاجة الى القسم — بالعالم غائبه وشاهده ، على ان القرآن قول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، ولا بقول كاهن . وانما هو تنزيل من رب العالمين

ثم تعبر السورة عن موقف الألوهية بالنسبة لمحمد على فرض انه كما يزعمون قد افترى القرآن على ربه : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل

لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » . والمعنى لقضينا عليه من ساعته ، وقطعنا منه عرق الحياة ثم لايوجد من يدفع عنه ، أو يمنعنا من تنفيذ ارادتنا فيه ، وموقفنا منه ـ وقد افترى علينا ـ هو موقفنا منكم وقد كذبتموه فى رسالته

أثر القرآن فى النفوس

ثم تختم السورة ببيان أثر القرآن فى النفوس ، وانه تذكرة للقلوب الصافية المستعدة للخير ، وحسرة على الأخرى التى أفسدت استعدادها بالشهوات والأهواء : « وانه لتذكرة للمتقين » . وانه لحسرة على الكافرين » . ثم تؤكد أن القرآن هو الحق الثابت الذى لا شبهة فيه ، وتأمر الرسول بالتزامه واهمال المكذبين ، معتصما فى ذلك بتنزيه الله الذى أحاطه بعنايته ، والذى لا يرجى ولا يخاف سواه : « وانه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم »

سورة المعارج

(*) كان من أساليب الدعوة الى التوحيد والبعث الانذار المتكرر للمكذبين بعذاب يوم القيامة ، وكثيرا ما طوقهم القرآن — على نحو ما رأينا فى السورة السابقة « الحاقة ما الحاقة » — بأنباء العذاب الأخروى والمحاكمة أمام القضاء الالهى

عذاب ليس له دافع

وكان القوم يقابلون هذا الانذار بالانكار والاستهزاء والسخرية ، ولقد وصل بهم الأمر فى ذلك الى حد أن استعجلوا العذاب ، والى حد أن قال قائلهم « اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »

وقد جاءت سورة المعارج ، بعد أن حققت سورة الحاقة أنباء البعث والقيامة ، تكشف عن ضعف عقلية القوم ، اذ كانوا يطلبون وقوع العذاب الذى به يوعدون ، بدل أن يطلبوا التوفيق الى الايمان فيكون ايمانهم وقاية لهم من ذلك العذاب ، وتؤكد لهم ان العذاب واقع بهم ليس من شك ، وليس لهم من ينجيهم منه ، وليس له من دافع يدفعه عنهم ، فمشيئة الله نافذة فيهم ، وعذابه لاحق بهم ، وترشدهم الى أن طول الأمد ، الذى لم يظهر فيه شىء منــه ، انما هو طول نسبى فى أنظارهم فقط . أما فى واقعه ، وفى تدبير الله ، فهو يوم واحد ، هو يوم الدنيا ، ومرحلة واحدة ، هى مرحلة التدبير لشئون الدنيا ، ذلكم التدبير الذى اقتضت حكمة الله أن يكون بواسطة جند يترددون بينه وبين خلقه على معارج ومصاعد فى

(*) سورة المعارج

يوم كان مقداره فى أيامكم خمسين ألف سنة . وما هى الا أن تمضى مرحلة التدبير ، ومرحلة التكليف ، وتأتى مرحلة الحساب وتحـديد المسئوليات ، واذن فلا تكترث يا محمـد بموقفهم منك واصبر صبرا جميلا ..

العـروج

وقد عبرت الآية عن مرحلة التدبير بعروج الملائكة والروح الى الله فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، وما علينا الا أن نؤمن بما تدل عليه الآية من قصر أمد الدنيا فى نظام الله ، وليس علينا أن نكلف أنفسنا عناء البحث عن حقيقة شىء استأثر الله بعلمه

ويلتقى هذا التصوير مع مثله فى آية أخرى « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون »

وفى آية ثالثة « يدير الأمر من السماء الى الأرض ثم تعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون »

فهم واجتهاد

والقصد من كل ذلك ان وقع العذاب الذى يسألونه يعقب ذلك اليوم الذى يتردد فيه الملائكة بين الخالق والخلائق ، وهو البقية من يوم النشأة الأولى . وقد جاء على لسان الرسول « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار الى السبابة والوسطى » واختلاف العدد يدل على مجرد الكثرة والمبالغة فى وصف الدنيا بالطول بالنسبة اليهم لا بالنسبة لنظام الله وأيامه ، وقد أفصحت السورة عن هذا المعنى « انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا »

من علامات القيامة

ثم أخذت السورة تذكر علامات القيامة فىالسماء وانها ستكون كالمهل « مائع الزيت » ، وفى الجبال وانها ستكون كالعهن المنفوش « الصوف

المنفوش » : وفى الانسان وانه سيتلهى فيه كل امرىء بنفسه : « ولا يسأل حميم حميما » . ثم تترقى فى وصف هول ذلك اليهم بأن المجرم يتمنى فيه لو يفتدى من عذابه بأقرب الناس اليه وأحبهم عنده ، ثم تقطع عليه أمل الفداء ، وتصور لحوق العذاب به يطمع النار فيه : « انها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى »

ثم تشير الآيات الى الانسان فى انكار الحق ومحبته الجمع والادخار اذا لم يعتصم بهداية الله ، وان منشأ ذلك فيـــه غلبة الهوى عليه « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا »

ثم تذكر ان علاج ذلك الشأن انما هو القيام بحق الله وحق الفقـــير السائل والمحروم ، وفى التصديق بيوم الدين ، وفى الخوف من عذاب الله ، وفى حفظ الأعراض والأمانات ، وفى الشهادات والمحافظـــة على الصلوات ، وانه بتلك الخلال الفاضلة تتحقق عناصر الشخصية الناجية التى يكون أهلها : « فى جنات مكرمون » . ولو أن هؤلاء سلكوا هذا السـبيل لكان مصيرهم الى النعيم ، ولكنهم رفضوا أن يطهروا قلوبهم وأخذوا يسخرون بالحق ، ويفترون على الله ، يزعمون لأنفسهم استحقاق الجنة ، بل أحقيتهم بها : « أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم كلا » ..

ثم تختم السورة بتوعدهم ، وتوجيه النبى الى عدم الاكتراث بهم : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » . وعندئذ يكشف لهم عن ساق ، وانهم كانوا على باطل ، ثم تصف خروجهم من القبور فى ذلك اليوم ، مسرعين ملبين دعوة البعث ، مقهورين غير مختارين ، وتذكرهم فى حالتهم هذه بحالتهم فى دنياهم حينما كانوا يخرجون من بيوتهم متسابقين الى أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله : « يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون »

سورة نوح

(*) قوبل النبى صلى الله عليه وسلم منذ أن دعا الى توحيد الله وعقيدة البعث بموجة شديدة من الانكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية ، وقد اقتضت الحكمة الالهية أن يكون من أساليب الدعوة التذكير بما أصاب الأمم الخالية جزاء الانكار والتكذيب ..

وفى هذه السورة يقص الله على نبيه موقف أول رسول بعثه للبشر فدعاهم الى مثل دعوته ، وقوبل منهم بمثل ما قوبل به ، تثبيتا له على دعوته ، وتسلية له فيما يصيبه ، وتهديدا لقومه ــ ان استمروا على العناد والاستهزاء ــ بعاقبة أسلافهم حينما استمروا على الكفر والعناد ..

وللعرب رابطة خاصة بنوح عليه السلام ، وهى رابطة البنوة ، ففى التذكير بقصته تهديد لهم بجانب ما كان فيها من النقمة التى أخذت المكذبين ، وامتنان عليهم بما كان فيها من النعمة التى أنقذ بها نوح ، ومن آمن معه ، ومنه كان آباؤهم الذين بواسطتهم ظهروا فى الوجود وتكونوا شعوبا وقبائل وانتشروا فى الأرض ، والى هذا تشير آية الحاقة : « لما طغى الماء حملناكم فى الجارية »

وقد تكررت فى القرآن بأساليب مختلفة بين الطول والقصر تسلية الرسول وتذكير القوم بقصة نوح عليه السلام . وعنيت هذه السورة المسماة باسمه بأمور :

(*) سورة نوح

دعوة نوح وأصولها

أولها : بيان دعوة نوح ، وانها ترتكز على أصول ثلاثة : عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام

تقوى الله باجتناب المعاصي التي تفسد الأخلاق وتفكك الروابط بين الجماعات ..

اطاعة الداعي فيما يأمر به عن ربه

وهذه الأسس الثلاثة هي دعوة كل رسول جاء بعده ، وهي مصاعد الحياة الطيبة تعلو الأمم اذا تمسكت بها ، وتسقط اذا انحرفت عنها : « انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال يا قوم انى لكم نذير مبين ان أعبدوا واتقوه وأطيعوه »

فوائد الدعوة

ثانيها : بيان فوائد هذه الدعوة التي تعود عليهم بخيرى الدنيا والآخرة اذا قبلوها وآمنوا بها . والآيات ترشد الى أنهم ينتفعون بها فى نواح ثلاث :

ناحية الروح ، تمحو عنها ما اقترفتــه من الذنوب « يغفر لكم من ذنوبكم »

ناحية الأجل ، فيها يستوفون أجلهم الطبيعي دون أن يعاجلهم العذاب المقدر عليهم اذا استمروا فى الكفر والمعاصي « ويؤخركم الى أجل مسمى »

ناحية الرزق ، بفتح أبوابه وتوجيههم نحو العمل فى الحياة ، والانتفاع بما سخر لهم فيها : « يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا »

سبل الدعوة

ثالثها : أن نوحا سلك معهم فى الدعوة السبل الطبيعية لكل دعوة جديدة : أسر وأعلن ، وجمع بين الأسرار والاعلان ، ومع كل هــذا : « جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا »

دعاهم ببيان ما فى الدعوة من الخير الروحى والمادى ، ثم دعاهم بلفت الأنظار الى آيات الله ونعمه فى أنفسهم وفىالخلق كله : « ما لكم لاترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا »

لفت أنظارهم بعد أن هزء عواطفهم الى برهان العقل فنبه الى خلق أنفسهم والاطوار التى مرت بهم ، ونبه الى خلق ما يحيط بهم من عالم علوى وسفلى على وجه يكفل لهم خير الدنيا وطيب الحياة

ومن دقائق الاشارات العلمية فى نظام الكون أن الآيات لم تجعل الشمس فى السموات وهذا يتفق تماما مع ما عرف أخيرا من أن الشمس مركز النظام الشمسى ، وأن الكواكب تختفى بها ، وأن القمر له مركز فيها ومعدود منها : « وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا »

عناد واعراض

رابعها : انه على الرغم من هـذه الطرق المختلفـة ، وتلك البراهين الواضحة ، نبذ قوم نوح دعوته ، واشتد انكارهم لها ، وقد صور نوح اعراضهم ، مرة بوصف فى أنفسهم ، سدوا آذانهم وتغطوا بثيابهم ، ومرة بالشكوى الى الله الذى أرسله بهذه الدعوة ، وأشار الى سبب اعراضهم: وهو اتباع الرؤساء المفتونين بالأموال والأولاد : « قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا »

ثم كشف عن دعوة الباطل التى خدعهم بها هؤلاء الماكرون : « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا »

وهنا أبرز أسماء الآلهة التى عبدوها من دون الله ، وهى أسماء لتماثيل كواكب اعتقدوا انها منبع الخير ، أو أسماء لقوم صالحين أطلقوها على تماثيلهم التى اتخذوها معبودات وآلهة من دون الله ، ولعل هذه الفترة كانت مبدأ زلة العقل البشرى فى اتخاذ التماثيل وعبادتها ، ومنه انحدر

تقديس البشر من الأنبياء والأولياء بما يقدس به خالق البشر . ومن هنا حظر الاسلام صنع التماثيل واقامتها بفكرة التقديس والعبادة ، وبذلك اجتث جذور الوثنية ، ونعى على المستغيثين والمستعينين بغير الله

عاقبة المكذبين

خامسها : بيان العاقبة التى صار اليها القوم جزاء اعراضهم عن سماع الحق « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » . وقد عرضت ســورة هود الى حادثة الطوفان التى أغرقت القوم : « واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » . ثم أشارت الآيات الى حكمة الله فى أخذ الجبارين المستكبرين وهى ترجع الى ارادة تطهير العالم من جراثيم الشر والفساد : « انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا »

وازاء هذه العاقبة السيئة التى تقطع على الجبارين حياتهم تشير الآيات الى العاقبة الطيبة لعباده المؤمنــين « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا والمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا »

أما بعد :

فتلك قصة نوح كما وردت فى سورة نوح ، قصها الله على كفار مكة ، وعلى جميع الناس ، وهى مثال حى ناطق بسنة الصراع بين الحق والباطل فى كل زمان ومكان ، وناطق بأن فساد العقلية البشرية ليس من أصــل الطبيعة وانما هو من خداع المستكبرين الماكرين ، وناطق بأن الحق مهما طال ركوده لا بد أن يعلو صوته وينتشر فى العالم ضوؤه ، ويعم الكون خيره ..

وهكذا ستكون عاقبتك يا محمد وعاقبة كل من اهتدى بهديك ، وسار على سنتك فى الدعوة الى الحق والى الصراط المستقيم

سورة الجن

(*) فطر الناس على ان فى العالم خلقا آخر غير الانسان ، يعرفونه بآثاره ولا يرون أشباحه ، ولا يعرفون حقيقته ، وقد صرحت بذلك جميع الكتب السماوية بعبارات واضحة لا تحتمل التأويل ، كما صرحت بالعناوين الخاصة بهذا الخلق ، فذكرت الملائكة ، وذكرت أعمالهم ومهامهم ، ووصفتهم بالطاعة الدائمة ، وانهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ..

الجن والانس

وذكرت الجن وجعلتهم نوعا مقابلا للانسان ينـدرجان تحت عنوان « الثقلين » ، وخاطبتهم وتحدثت عنهم ، كما خاطبت الانسان وتحدثت عنه : « يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا . لا تنفذون الا بسلطان فبأى آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » . « ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها » . « ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا . قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله »

تكاليف ومسئولية

وهكذا نجد القرآن قد أشرك الانس مع الجن فى المسئولية والمؤاخذة والمصير ، ووضعهما فى اطار واحد ، وتحدث عنهما بحديث واحد ، وشرع

(*) سورة الجن

فى وجوههم جميعا حجة واحدة : « يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟.. قالوا : شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين »

حقائق ثابتة

واذن فليس فى وجود الجن شـــك ، وليس فى تحميـــلهم شرائع الله ورسالاته شك ، وليس فى مسئولياتهم ومؤاخذتهم بالتقصير شك ، وليس فى استعدادهم لاستماع القرآن وتلقيه وفهمه وتدبره والتأثر به شك ، فكل هذا حق لاريب فيه ، ومن لم يؤمن به فليس بمؤمن بالقرآن ولا برسالة السماء . وان محاولة تأويل شىء منه تحريف للكلم عن مواضعه ، وسلخ للألفاظ عن معانيها ، وضيق عطن من المولعين بانكار ما لا يدركه الحس ..

استجابة الجن للاسلام

هذا وقد قص الله علينا فى موضعين من كتابه استماع نفر من الجن للقرآن ، وان هـــذا الاستماع كان له أثره البالغ فى نفوسهم ، صحح عقائدهم فى الله ، وطهر نفوســـهم من الأوهام والخرافات المتعلقة بهم ، وكملهم بالمعارف الصحيحة ، واندفعوا به الى انذار قومهم فأرشـــدوهم الى الحق فى العقيدة ، والى الحق فى الرسالة ، والى الحق فى علاقتهم بالانس ، والى الحق فى معرفتهم الغيب ، أجمل كل ذلك فى قوله تعالى من سورة الاحقاف : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منـــذرين قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين »

وهذه سورة الجن تفصل ما أجملته سورة الاحقاف من مبادىء الخير والفضيلة التى أدركوها من القرآن ، وتصحح على لسانهم الأخطاء التى كانوا عليها وأدركوا الحق فيها مما سمعوا من القرآن

الجن يتحدثون

ولنصغ اليهم وهم يلقنون عقيـدة التوحيـد وتنزيه الرب عن اتخاذ الصاحبة والولد : « ولن تشرك بربنا أحدا وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا »

ولنصغ اليهم وهم يضيفون فساد عقائدهم الى سفهائهم الذين يكذبون على الله ..

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم عمن يعتقدون من الانس ان للجن سلطانا عليهم فيعوذون برجال منهم وضعوا فى نفوسـهم ان لهم سلطة استخدام الجن ، وسلطة منعهم من أذاهم ، وقد درج النـاس على هـذا الوهم ، واسـتغل به كهنتهم ضـعاف العقول منهم باسم العلاج و « التحويطـة » وساعدهم على ذلك طائفـة من المتسمين بسمة العلم والدين وأيدوهم بحكايات وروايات موضوعة ــ وقد يشاركونهم فى الاستغلال والدجل ــ حتى أفسدوا على الناس عقائدهم وصرفوهم عن العلم النافع والعمل المفيد . فجاء القرآن يقرر فساد ذلك كله على لسان الجن أنفسهم : « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » .

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم فى العقيدة الفاسدة . عقيـدة ان الجن يعلمون الغيب ، وان اناسا يستخدمونهم فى ذلك فيعلمون منهم ما تسـوقه المقادير الالهية من شر فيتقى أو خير فيرتقب . ثم يعلنون أن الغيب لله وحده ، وان القرآن قصر علم الغيب على الله فلا يعلمه أحـد سواه : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » . « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب » . « وانا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا »

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون عن قدرة الله ، وعن العاقبة الطيبة لمن يؤمن بالله ، وعما كان بينهم من الاختلاف فى العقيدة ، وعن مصير الجاحدين الظالمين : « وانا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا »

توجيهات

ثم تختم السورة ــ بعد حديث الجن الى قومهم بما سمعوا من الحق ــ بجملة توجيهات للنبى صلى الله عليه وسلم فتأمره أن يتمسك بدعوته ، وأن يعلن عجزه وعدم قدرته على الخير أو الشر ، وان السلطان عليه وعلى الناس لله وحــده ، وانه لن يجد من دونه ملجأ يلتجىء اليه ، وانه مبــلغ لرسالة ربه فقط ، وانه لا يدرى متى ينزل العذاب الذى توعدهم الله به ان لم يؤمنوا وانه من الغيب الذى لا يعلمه الا الله ، وان الله لا يطلع على غيبه أحدا من خلقه الا من ارتضى من رسول فانه يطلعه على ما أراد ثم يحفظه بجنده الالهى حتى يبلغ رسالته : « فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم ان قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا »

هذه قصة الجن فىاستماع القرآن والتأثر به وهداية قومهم اليه ، فهل تقف الشهوات والأهواء بالانس دون أن ينتفعوا بالقرآن ــ كما انتفع به الجن ــ وهم من جلدة الرسول ، تجمعه واياهم بيئة واحدة ، ورحمة واحدة ، ونشأة واحــدة ، وفى الحق ان فى قصة الجن وتأثرهم بالقرآن على هذا النحو هزة عنيفة لانسانية الجاحدين المستكبرين من الانس ، وفيها فوق ذلك من العبر ما يلقم الدجالين فى كل عصر ومكان حجر الحق الذى يفتت أمعاءهم ويذهب بكيدهم ويفسد عليهم أمرهم فى التســلط على عقول الضعفاء من الناس فاعتبروا يا أولى الأبصار ..

سورتا المزمل والمدثر

(*) ركزت سورة الملك عقيدة التوحيد ، وسورة القلم عقيدة الرسالة المحمدية ، وسورتا الحاقة والمعارج عقيدة البعث ودار الجزاء ، ثم أقامت سورة نوح الحجة التاريخية الواقعية على صحة الدعوة ، كما أقامت سورة الجن الحجة البالغة على ما أحدثه القرآن من عظيم الأثر فى نفوس الجن ، وانهم فهموه وانتفعوا به وأرشدوا قومهم اليه ، وبذلك كله تركزت الدعوة فى ذاتها ، وفى آثارها ، ولكن كل ذلك لا يكفى فى تقبل الناس لها وانتفاعهم بها ، بل لابد لها مع هذا من لسان بين ، يحمله قلب قوى ، يدعو اليها ويعمل على نشرها والاقناع بها . وان الحق لابد له من قوة تحمله وتحميه ، وهو لا يقوم فى ظل الراحة والسكون ، ولا فى ظل العزلة والانكماش ، وانما يقوم :

أولا : باعداد النفس بتمرينها على تحمل المشاق وتكميلها بالفضائل التى ترسل عليها أشعة الأنوار الالهية فتضىء لها السبل ، وتمدها بقوة تقتلع منها بواعث الحيرة والاضطراب ، وتزيح من أمامها العقبات ..

وثانيا : برسم المنهاج الواضح للدعوة الذى يأخذ بالنفوس من طريق الشر الى طريقها الممهد ، وقد جاءت السورتان : « المزمل والمدثر » ترشدان الى ما يجب من هذين الأمرين لينجح الداعى فى دعوته ، ويقوم بمهمته . والكلمتان معناهما : « المتلفف بالثياب » وقد يكون ذلك اشارة الى حالة حقيقية لجأ اليها النبى فى بعض ظروفه المتصلة بمفاجأة الوحى له ، أو بموقف القوم منه ، وقد يكون رمزا لحالة الدعة والسكون والتفكير العميق فى وسائل الدعوة التى كلفها ، وعلى كل فالنداء بهذا

(*) سورتا المزمل والمدثر

الوصف ينهض الهمة ، ويوقظ النفس ، ويحرك بواعث العمل ويضاعفه التهيؤ لما يلقى من تعليم ..

يا أيها المزمل

وقد تضمن النداء الأول : « يا أيها المزمل » نهيه صلى الله عليه وسلم عن الدعة والسكون ، كما يكون من شأن المتهيب لعمل لم يعهده ، ولا يعرف قدرته عليه ، وتضمن ارشاده الى تقوية قلبه عن طريق قيام الليل ومناجاة ربه واستشعار عظمته ، فيستمد بها الحول والقوة ، والى تلاوة القرآن وتدبر الوحى الذى يلقى عليه تدبرا علأ روحه ايمانا وقوة ، والى مشقة المهمة وصعوبة الدعوة لكى يبذل لها ما تستحق من العناية ، ولتهون على نفسه الصعاب حينما تصادفه وتتصل بدعوته ، والى توزيع الأعمال على الأوقات ، فيقوم فى كل وقت بالعمل الذى يكمل فيه وينضج ، فالليل للعبادة والقراءة والذكر ، والنهار للدعوة والتقلب بين الناس للارشاد والتعليم ، واقرأ فى ذلك كله قوله تعالى : « يا أيها المزمل ، قم الليل الا قليلا .. الى قوله : « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا »

يا أيها المدثر

ثم يجىء النداء الثانى : « يا أيها المدثر » فينزعه مرة أخرى من هموم نفسه وحيرته فى هداية قومه . يطرد عنه اليأس ويوجهه الى العمل ومباشرة المهمة : « قم فأنذر » ثم يجمع له أطراف المهمة فى كلمات قصيرة هى فى عظم معناها وضخامته أشبه بالقنابل الثقيلة تقذف معسكرات الشرك والطغيان ، وتبيد جراثيم الفسوق والعصيان : « وربك فكبر » لا يكن فى قلبك مثقال ذرة من خوف غيره أو عظمة سواه ، وهذا تقرير لعقيدة التوحيد ، وتحرير للعقل من سلطة الوهم : « وثيابك فطهر » وهذا تحرير للنفس من قيود الأخلاق الذميمة .. « والرجز فاهجر » وهو تحرير للجوارح من قيود المعاصى والذنوب . واذا كان الانسان عقلا ونفسا وجسدا ، وكان كل فساد أو صلاح منشؤه العقل أو النفس أو

الجسد ، فتلك ارشادات ثلاثة تطهر القوى الثلاث من كل شر ، وتجعلها خالصة لكل خير

ولما كان ما تضمنه النداءان ، من وجوه الاعداد النفسى ، ونواحى العمل فى مهمة الرسالة ، يحتاج فى تحققه الى استعانة خاصة وجهاد قوى ، جاء عقب كل منهما فى السورتين تخصيص الصبر من بين الأخلاق بالذكر والعناية ، فتقول الأولى بعد الارشاد الى وجوه الاعداد « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » . وتقول الثانية بعد الارشاد الى نواحى العمل : « ولربك فاصبر »

للمكذبين عاقبة سيئة

ثم تأخذ السورتان ، كل بأسلوبها الخاص ، فى شد أزره صلى الله عليه وسلم بتهديد المكذبين ، وبيان ما أعد لهم عند الله من العاقبة السيئة والعذاب الأليم فتقول الأولى : « وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، ان لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ، يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا » .. الى أن تقول : « فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا » وتقول الثانية : « فاذا نقر فى الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير ، ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا، انه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعودا»

وصف الجحيم

ثم تأخذ فى وصف الجحيم بما يذيب النفوس ويبدد نياط القلوب ، وتختم الأولى « المزمل » بارشاد المؤمنين دعاة الحق ، والمؤمنين بالحق ، الى ما يحفظ لهم عز الحياة ، وسعادة الآخرة : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا » . وتختم الثانية بتسجيل نكبة المعرضين عن الحق واعترافهم على أنفسهم بالكفر والطغيان ، والقسوة على الفقراء والمساكين : « قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك

نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين .. » الى أن تقول : « كلا بل لا يخافون الآخرة ، كلا انه تذكرة ، فمن شاء ذكره وما يذكرون الا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة »

أما بعد ، فهاتان سورتا الاعداد والعمل ، فمن شـاء أن يصـل الى السعادة فليعد نفسه بما رسمت سورة المزمل ، وليعمل على أساس مما رسمت سورة المدثر ، وليتذرع بالصبر والاخلاص ، وليسر بنفسه وأمته فى ضوء تلك التعاليم المنبعثة عن الرب ، العليم بطيات النفوس ، الرحيم بخلقه ، والله للعاملين المخلصين نعم المولى ونعم النصير

سورة القيامة

(*) كانت عقيدة البعث من أبعد ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم فى نظر القوم وقد قوبلت منهم بشدة الانكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية ، وكثيرا ما كانوا يلقون بكلمات يزعمون انها براهين تحيل وجودها ، وتمنع التصديق بها : « أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ » . « من يحيى العظام وهى رميم ؟ » « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » وكان القرآن يلاحقهم فى ذلك بانذاراته المتكررة ، وتأكيداته المتعددة ، وبراهينه الحية الواضحة ، حتى لقد جاء فيه جملة سور سميت بأسمائها وأسماء مقدماتها وأهوالها ، وكانت عقيدة البعث أبرز ما عنيت بتأكيده هذه السور ، ففيه الواقعة ، والغاشية ، والحاقة ، والقارعة ، وفيه التكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والزلزلة ، ولا نكاد نجد بعد ذلك سورة من القرآن الا قد عرضت لتلك العقيدة فى ناحية من نواحيها

ثمرة الايمان بالجزاء

والواقع ان الايمان بالجزاء أقوى ما يغرس فى النفس الايمان بالحق ، والايمان بالفضائل ، ويبعث فيها داعية الخير وطاردة الشر . وهذه سورة القيامة تجىء بعد سورة المدثر التى سجلت على المجرمين ما سيكون من اعترافهم يوم البعث على أنفسهم بالكفر والجحود ، فتؤكد أمر القيامة ، وأن تحققها ، فى وقتها الذى يعلمه الله ، أمر بين لا يحتاج الى قسم :

(*) سورة القيامة

« لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة »
واذا كان من سنة الله فى القرآن انه لا يقسم فى موضع الحاجة الى القسم الا بما عظم خطره من مخلوقاته ، ودلت العبارة على ان القيامة لا يحتاج فى ثبوتها الى قسم بها عليها ، ولا بالنفس اللوامة عليها — كان فى ذلك ارشاد الى أن القيامة وكذا النفس اللوامة من أعظم مخلوقاته خطرا ، وأقواها أثرا ، وأظهرها وجودا ، وفى هذا تقرير لتحققها ووجودها

النفس اللوامة

وفى ضم القسم بالنفس اللوامة الى القسم بيوم القيامة ارشاد آخر الى مكانة هذه النفس التى لاتترك صاحبها عند درجة يلام عليها ، بل لا تتركه عند درجة فوقها درجات من الكمال ، فهى على الدوام تؤنبه على الدرجات الدنيا ، وتدفعه الى الدرجات العلا ، حتى يعتلى أشرف المنازل فى هذا اليوم الخطير ..

ابطال دواعى الانكار

وبعد هذا الاستدلال المملوء بألوان من التأكيدات ليوم القيامة ، تأخذ السورة فى ابراز ما احتوت عليه نفس الانسان الجاحد من الظنون والأوهام التى زينت له الانكار والجحود « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ؟ » . ثم تقذف هذا الحسبان الكاذب بما يقتلعه من جذوره : « بلى قادرين على أن نسوى بنانه » . قادرين على جمع عظامه ، واعادة تركيبه الى آخر ما يبلغ به حد الكمال الخلقى ، وهو تسوية البنان والأطراف ..

ثم تبرز السورة شأنا آخر — كان له أثره فى انكار البعث والقيامة — غير ظن العجز عن الاعادة : تغلبت على الانسان شهوته ، واندفع بها فى لذته فنسى البعث بل وأنكره ليفك نفسه من قيوده فيكون حرا طليقا فيما يشتهى : « بل يريد الانسان ليفجر أمامه » . فلم ينكره نزولا عن برهان ، وانما هو محاولة التفلت من سلطان التكاليف والمؤاخذة ، وتقد

أبعد فى ذلك حتى سأل سؤال المستهزئين : « يسأل أيان يوم القيامة » وهنا تصف له الآيات ما سينزل به من الأهوال التى تحيط به ، والتى لا يجد له منها ملجأ ينقذه ويخلصه : « فاذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ : أين المفر ؟.. كلا لا وزر ، الى ربك يومئذ المستقر » ..

وهنا تقدم له صحف أعماله ونياته فينبأ بما قدم وأخر ، بل وتكون نفسه بصيرة وشاهدة عليه ، وعندئذ يحاول أن يخلص من صحيفته ، فيعجل بقراءتها لتطوى ويفرغ من حسابه وموقف خزيه ، فيعلن بأن الأمر فى ذلك ليس اليه وانما هو الى الله صاحب الشأن فى عرض الأعمال واظهار السيئات : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه »

ثم تبرز السورة من نفس الانسان داعيا آخر لانكار البعث ، وهو محبة الدنيا التى تطمس عليه جانب الآخرة : « بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » ..

وهنا تعرض السورة ان الناس فى هذا الموقف أبرار وفجار : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة» ثم تحذرهم الركون الى الدنيا وتصور لهم أهوال الاحتضار حينما تبلغ الروح الحلقوم ، ويعجز الطبيب والكاهن . ويرى مشهد الفراق : « والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق » . وهنا يسمع أسباب أحزانه « فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب الى أهله يتمطى » يختال ويتكبر

الجزاء مقتضى الحكمة والعدل

ثم تختتم السورة بتقرير القدرة على الاعادة ، وانها من نوع القدرة على الخلق الأول ، وان الاعادة لتحديد المسئوليات ، والجزاء على الأعمال أثر من آثار العناية بالانسان وتكريمه ، وانه لا يمكن ــ وقد أكرمه الله

ونفحه بالعقل والشرائع ـــ أن يتركه سدى وهملا كالعجمـــاوات دون حساب ولا جزاء : رسم له شرائعه ، ووهبه قوى العمل ، وقوى التسلط على ما خلق ، وأنشأه عاملا قويا مفكرا من موبهة قذرة ، ثم أحاطه بعناية بما ينعم به فى حياته ويحفظ له ذكراه من بعد مماته ، فلا بد له اذن من يوم يسأل فيه عن النعيم ، ويتجلى فيه بالنسبة للمحسن والمسىء فضـــل الله وعدله ، وهو ذلـــكم اليوم الموعود : « أيحسب الانســـان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى »

آمنت بالله العظيم ..

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الكريم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

فهرس

طبع بمطابع

مؤسسة دار الهلال

